رواية

Honore de Balzac

أونريـــه دي بلـــزاك

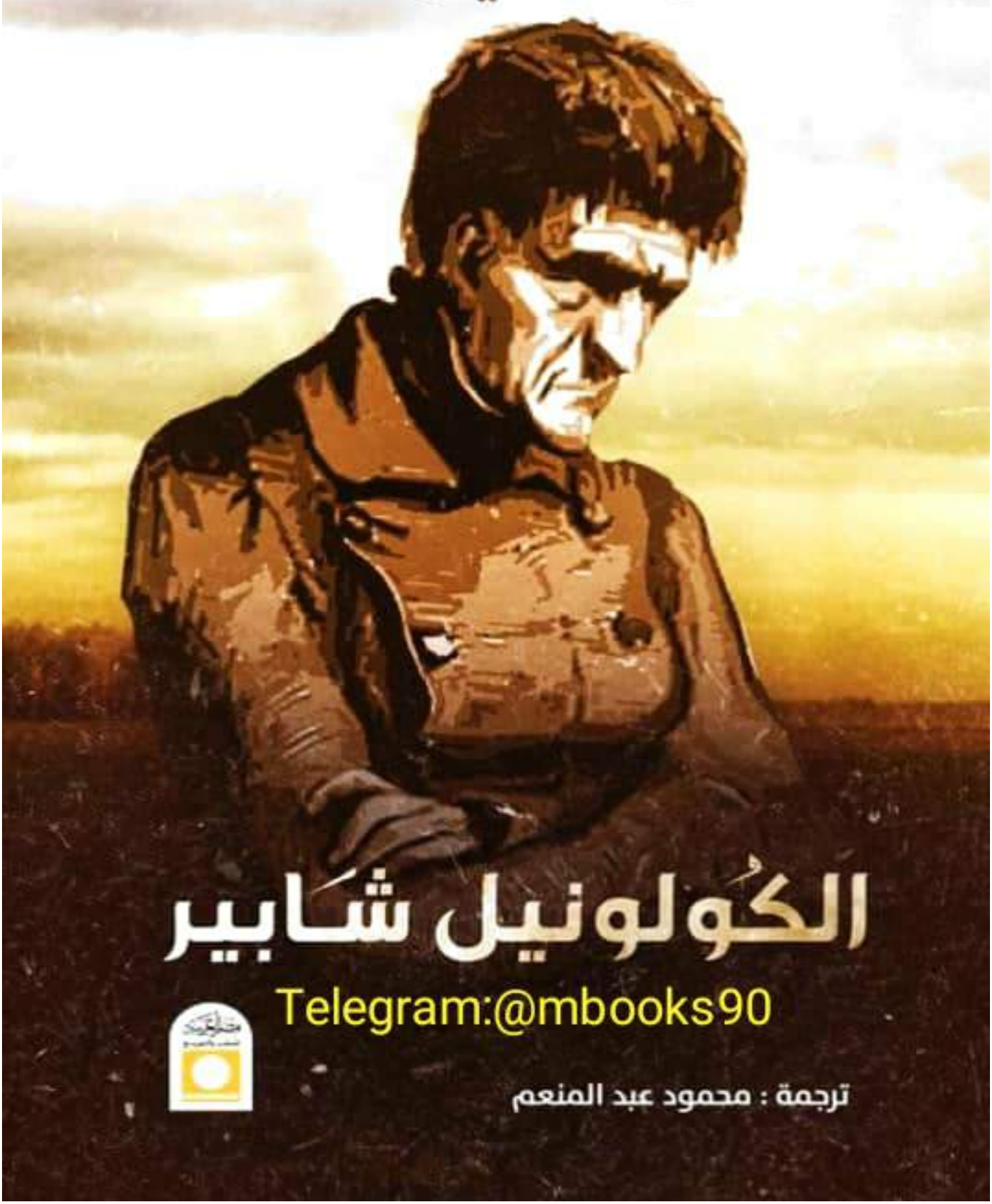

الكُولونيل شَابير

Telegram:@mbooks90

ترجمة : محمود عبد المنعم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

*

ـ ها هو ذا "المعطف العتيق" قد عاد مرة أخرى!

سقطت هذه الكلمات من شفتي فتى صغير ممن يعملون ككتبة لدى المحامين، وكان يقضم بشهية في قطعة من الخبز بين يديه، وهو متكئ بذراعه على حافة النافذة. وما لبث أن اقتطع قليلا من لباب الخبز، وعالجه بين أصابعه، فجعل منه كرة صغيرة ألقى بها وهو يضحك من النافذة، وانطلقت الكرة حتى استقرت على الأرض، بعد أن صدمت قبعة رجل عجيب كان يجتاز فناء الدار التي يسكنها الأستاذ درفي المحامي في شارع فيفيين.

قال كبير الكتبة، وقد توقف عن متابعة جمع قائمة بالمصروفات كانت بين يديه:

ـ هيا، يا سيمونان، كف عن الهذر وعن معاكسة الناس، وإلا ألقيت بك خارج باب المكتب. هل يعيب العميل أن يكون فقيرا؟. إنه إنسان على كل حال.

إن كاتب المحامي، من أمثال سيمونان، هو عادة صبي في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره. وهو في سائر المكاتب خاضع لسلطان كبير الكتبة، الذي لا يكف عن تكليفه بخدماته الخصوصية، إلى جانب رحلاته التي لا تنقطع إلى أقلام المحضرين وسائر جهات المحاكم، يقدم إلى هذه الإعلانات، ويسحب من تلك الأوراق والأحكام. وهو يجمع في طباعه شقاوة غلمان باريس، إلى جانب حب المشاكسة التي يعيش في جوها ويعد نفسه لجعلها مهنة له. ولذا كانت صفاته الغالبة القسوة والجرأة والتمرد التام، فضلا عن الجشع والكسل المتناهيين.. على أن لكل من هؤلاء الكتبة الصغار أما عجوزا تسكن في أحد الطوابق الخمسة، يتقاسم معها الثلاثين أو الأربعين فرنكا التي يحصل عليها أجرا عن كل شهر.

قال سيمونان معاندا كالتلميذ الذي يفاجئ معلمه واقعا في الخطأ:

ـ إذا كان هذا العميل إنسانا كسائر البشر، فلماذا أطلقت عليه اسم "المعطف العتيق"؟

وعاد الفتى يقضم قطعة الخبز بين يديه ويأكل الجبن، وهو يستند بكتفيه إلى قائم النافذة. فقد تعود أن يجد الراحة وهو واقف، كالخيول الخشبية، وقد رفع إحدى ساقيه وركزها على حافة الحذاء في الساق الأخرى.

وجاء صوت خافت يقول:

ـ أي مقلب، يا ترى، نستطيع أن نعمله في هذا المخلوق؟..

وكان هذا الصوت صوت الكاتب الثالث، المدعو جوديشال، وقد توقف عن متابعة إلقاء عبارات العريضة التي كان يملي نصها على زملائه، فيحرر الكاتب الرابع أصلها، ويسود صورا منها كاتبان مستجدان قادمان من الريف للمران. ثم عاد جوديشال إلى ما كان فيه من إملاء:

- "إن... صاحب الجلالة الملك لويس الثامن عشر - اكتبها حروفا كاملة، أنت يا ديكروش، في أصل العريضة - بما توفر له من حكمة نبيلة كريمة، قد أدرك - ما الذي أدركه هذا النصاب الغليظ؟ - عندما استعاد مقاليد ملكه، المهمة السامية التي اختصته بها العناية الإلهية - ضع هنا علامة تعجب وكثيرا من النقط؛ لأن الشعور الديني قوي بين رجال المحكمة وسيسرون لهذه الكلمات - وكان همه الأول، كما يدل على ذلك الأمر المشار إليه فيما تقدم، العمل على مسح المآسي وإزالة المظالم التي خلفتها لنا الفترة الثورية، فأعاد إلى رعاياه المخلصين العديدين - ستسعد المحكمة بكلمة "العديدين" هذه - جميع ما لم يتم بيعه من أموالهم، سواء منها ما وجد ضمن الملكية العامة، أو ضمن ملكية التاج الخاصة، أو ضمن ما وهب إلى المرافق والمؤسسات. ذلك أننا على يقين من أن هذا هو الذي قصد إليه الأمر الكريم الصادر في...".

Telegram:@mbooks90

وهنا توقف الزملاء، إذ رفع الكاتب الرابع رأسه وهو يقول:

- مهلا، لقد وصلت بي هذه الجملة اللعينة إلى نهاية الصفحة.

وأخذ يلعق بلسانه ظهر الورق المدموغ السميك ليقلب منه الصفحة. وانتهز جوديشال الفرصة ليقول:

إذا أردتم أن تعملوا مقلبا نظيفا في هذا الوغد، فلنقل له أن الأستاذ لا يستقبل عملاءه إلا فيما بين الثانية والثالثة صباحا... وسنرى ما الذي يفعله..

ثم عاد إلى الإملاء:

- ... الأمر الكريم الصادر في .. هل أنتم جميعا معي؟.

فصاح الكتبة الثلاثة في صوت واحد:

- نعم.

وهكذا كان كل شيء يسير بتوافق: تحرير العريضة، والحديث الذي لا جدوى منه، والمؤامرة ضد العميل المسكين.

- ... الصادر في ما هو تاريخ ذلك الأمر، يا عم بوكار؟ يجب أن نضع النقط على الحروف. يا

خبرا.. لقد كثرت الصفحات.

وقبل أن يجيب بوكار, كبير الكتبة, على السؤال, قال أحد الكاتبين مرددا:

- يا خبرا..

فصاح جوديشال, وهو يلقي إلى هذا الكاتب نظرة اجتمعت فيها علامات الدهشة والقسوة والاستهزاء:

- كيف؟ هل كتبت "يا خبر"؟.

ومال ديكروش على الورقة التي بين يدي زميله الجالس إلى جواره, وقال:

- نعم. لقد كتبت: "يجب أن نضع النقط على الحروف. يا خبر." وجعل نقطة فوق الراء.

فانطلقت من حناجر الكتبة جميعهم ضحكة عالية. وصاح سيمونان:

- كيف يا مسيو هوري تعتبر الخبز من العبارات القانونية؟ ومع ذلك تزعم أنك خريج مدرسة مورتاني!..

وأسرع كبير الكتبة يقول:

- امسح هذا السخف. لو رأى القاضي الذي سيقرأ الملف هذا الهراء لقال أننا نستهزئ بالسلطات. إنك تضع الأستاذ بذلك في حرج شديد. لا تعد إلى مثل هذه السقطة, يا مسيو هوري. إن الكاتب النورماندي لا يحرر العرائض بمثل هذا الاستخفاف, وهي أساس عمل كاتب المحامي.

- .. الصادر في.. الصادر في.. قل لي يا بوكار, الصادر في كم؟.

فرد كبير الكتبة من غير أن يحول عينيه عما بين يديه من أوراق:

يونيو 1814.

ودق باب المكتب, فتوقف الإملاء, ورفع الكتبة الخمسة عيونهم الساخرة ورءوسهم المستديرة, صائحين في صوت منغم متراخ:

- ادخل.

أما بوكار فظل وجهه غارقا وسط تلال الأوراق والمستندات, وهو يجمع كشف المصروفات الطويل بين يديه.

*

وكان المكتب غرفة واسعة يزينها الموقد التقليدي الذي لا يخلو منه أي مكان خصص للنزاع والمشاكسة. وقد برزت على إحدى حوائطه مجموعة من المواسير التي تنتهي داخل مدفأة بطل عملها، وانتشر على لوحتها الرخامية فتات الخبز وقطع الجبن وبقايا العظام، إلى جانب الأكواب والزجاجات وإناء الشراب الخاص بكبير الكتاب. وكانت الروائح المنبعثة من هذه المواد التموينية تمتزج بالأبخرة المتصاعدة من الموقد المشتعل، وبالعفوية المميزة لأكداس الأوراق وملفات القضايا، فتنتج عن ذلك رائحة نتنة. وكان الوحل والثلج منتشرين في أرض الغرفة بفعل أقدام الكتبة، وحول المنضدة التي يجلس خلفها كبيرهم إلى جوار النافذة، وبجانبها منضدة الكاتب الثاني، الذي كان في ذلك الوقت يتنقل بين أروقة المحكمة يتابع فيها شئون المكتب. وكانت الساعة ما بين الثامنة والتاسعة صباحا، وقد انتشرت على حوائط الغرفة لوحات صفراء لصقت عليها أوراق مهلهلة تعلن عن الحجوزات العقارية، وعن البيوع الجبرية، وعن إجراءات القسمة بين بالغ لسن الرشد وقاصر، وعن مزايدات نهائية أو تمهيدية... كل ما تفخر به مكاتب المحامين وعليه تعيش. وخلف كبير الكتاب انتصبت خزانة هائلة تكسو الحائط من أسفله إلى أعلاه، وقد انحشرت في جنباتها رزم الأوراق، يتدلى منها عدد لا يحصى من الجذاذات والخيوط الحمراء التي تضفي على ملفات الإجراءات طابعها الخاص. أما الأجزاء الدنيا من تلك الخزانة فكانت تعج بحزم قديمة من الأوراق التي تحمل أسماء كبار العملاء، ممن تطبخ قضاياهم الدسمة في ذلك الوقت.

ولم يكن يمر من زجاج نوافذ الغرفة غير قليل من الضوء، وهل في باريس كلها مكتب يستطيع المرء أن يخط فيه سطرا بغير الاستعانة بنور المصباح قبل العاشرة صباحا في شهر فبراير؟ ذلك أن مكاتب المحامين تحظى بإهمال له ما يبرره. فالكل يذهب إليها ولا يبقى فيها أحد. وقد هانت على الجميع فلم يحرص أحد على تجميلها وحفظ ردائها. فالمحامون من أصحابها لا يرون فيها غير المعمل الذي تأتي عن طريقه الأتعاب، والمتقاضون الذين يترددون عليها يكتفون منها بالعبور السريع ثم الفكاك، والكتبة الذين يعملون بها لا يهمهم من أمرها شيء. إن ما بها من أثاث قذر ينتقل بقذارته من زميل إلى زميل في أمانة مطلقة، وكأنه من المقدسات الدينية التي يمتنع تغييرها ويجب الحفاظ عليها. وهكذا نرى اليوم في بعض تلك المكاتب من الأدوات والمسميات ما كان شائعا في العهود الغابرة.

كان هذا المكتب إذن، كغيره من أمثاله، مظلما قذرا ينتشر التراب في أرجائه، ولا يجد المتقاضون فيه شيئا يسر العين أو يطمئن القلب. فكان بذلك من أفظع عجائب باريس وأكثرها

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

شناعة. حقا, لو لم توجد المعابد الرطبة حيث توزن الصلوات وتشترى كأنها سلعة العطار, ولو لم توجد حوانيت الثياب العتيقة حيث تتأرجح الخرق التي تذبل أمامها جميع أوهام الحياة, والتي ترينا إلى أين ينتهي المصير بأفراحنا وأعيادنا, لو لم توجد هاتان المباءتان اللتان يمتهن فيهما الجمال وتجرد فيهما الشاعرية من روائها, لكان مكتب المحامي, من بين الأماكن الاجتماعية, أكثرها كآبة وأشدها وحشة. ولكن, ألا يشترك في ذلك كل من بيت المقامرة ومبنى المحكمة ومكتب اليانصيب والماخور؟. لماذا؟ لعل السبب يرجع إلى أن المأساة التي تعتمل في صدر الإنسان داخل هذه الأماكن تصرفه عن الاهتمام بحواشي الأمور وجوانبها التافهة. أو ليس في ذلك ما يفسر أصدق التفسير ما طُبع عليه كبار المفكرين وعظماء الطامعين من تجرد وبساطة عيش؟.

أين مطواتي؟.

ـ أنا أتناول إفطاري!.

ـ يا للداهية!.. كيف تضع الفطيرة فوق صفحات العريضة؟.

ـ اسكتوا, يا سادة.

انطلقت هذه العبارات كلها في اللحظة التي أغلق فيها المتقاضي العجوز باب المكتب, وقد بدا عليه الانكسار الذي يشوه حركات الرجل البائس. وحاول القادم أن يبتسم, ولكن عضلات وجهه لم تلبث أن تراخت بعد أن نظر إلى وجوه الكتبة الستة فوجدها غير حافلة بمقدمه, وليس بها سمة من سمات الترحيب به أو العطف عليه.

لاشك أنه قد خبر الحكم على الرجال. فقد توجه في أدب جم إلى سيمونان, أصغر الموجودين, لعله يجد لديه ردا لا خشونة فيه, وقال له:

ـ سيدي, هل يمكنني أن أقابل الأستاذ؟.

فما كان من الصبي الخبيث إلا أن رفع يده اليسرى إلى أذنه, ونقر عليها نقرات متوالية بأصابعه, وكأنه يريد أن يقول: "أنا أصم لا أسمع".

وأسرع جوديشال يقول, وهو يلقي في شدقه بلقمة كبيرة من الخبز, ويرفع مطواته في الهواء, ويضع ساقا على ساق في حركة طوحت بقدمه إلى مستوى عينيه:

ـ ما الذي تريده, يا سيدي؟.

فرد عليه القادم في ذلة:

ـ هذه هي المرة الخامسة التي آتي فيها إلى هنا, يا سيدي. إني أريد التحدث إلى الأستاذ درفي.

ـ هل يتعلق الأمر بقضية؟.

ـ نعم. ولكن لا أستطيع شرح الموضوع إلا للأستاذ..

ـ الأستاذ نائم. إذا كنت تريد استشارته في أمر ذي بال فهو لا يعمل جادا إلا عند منتصف الليل. ولكن إذا شئت أن تعرض علينا قضيتك استطعنا مثله تماما أن ...

وظل الرجل واقفا, ينظر في خشوع إلى ما حوله, كأنه كلب ولج إلى وليمة لم يدع إليها, ويخشى أن تنهال عليه الضربات.. إن كتبة المحامين محصنون بفضل مهنتهم ضد اللصوص, فهم لا يخشونهم أبدا. لذلك لم تداخلهم أية ريبة في نوايا الرجل ذي المعطف, وتركوا له حرية التجول بنظره في أرجاء المكتب باحثا عن مقعد يجلس عليه, فقد كان بادي الإرهاق. ومن طبع المحامين ألا يتركوا مقاعد كثيرة في مكاتبهم, فلا يلبث العميل الذي لا جدوى منه أن يمل الوقوف على قدميه, ويسرع بالانصراف وهو يسب ويزمجر, وبذلك لا يضيع الوقت فيما لا أتعاب فيه.

وقال الرجل ذو المعطف:

ـ سيدي, لقد سبق لي أن تشرفت بإبلاغك أني لا أستطيع عرض قضيتي إلا على الأستاذ درفي. سأنتظره حتى يصحو من نومه.

انتهى بوكار من جمع كشف المصروفات, وتاقت نفسه إلى الشراب. فغادر مقعده الخيزراني, واتجه نحو المدفأة, وألقى نظرة على الرجل العجوز وعلى معطفه, وبدا على وجهه الاشمئزاز. لعل فكرة جالت بخاطره تقول أنه على أي وجه يمكن عصر هذا العميل فلن يستطيع استخراج سنتيم واحد منه. وأسرع بكلمة حاسمة يحاول صرف الرجل وإنقاذ المكتب من وجوده:

ـ لقد قالوا لك الحقيقة, يا سيدي. الأستاذ لا يعمل إلا ليلا. إذا كانت قضيتك ذات خطورة فنصيحتي لك أن تعود في الساعة الواحدة من الصباح.

ووقف صاحب المعطف العتيق لحظة لا حراك به, ينظر إلى كبير الكتبة نظرة بلهاء. ولما كان الكتبة قد تعودوا على رؤية الانفعالات المتقلبة التي ترتسم على وجوه المتقاضين, وخبروا آثار الآمال والأوهام التي تراود نفوس أصحاب المنازعات, فقد ظلوا سادرين في أكلهم وقضمهم

محدثين بأفواههم وأسنانهم ضجيجا كضجيج الخيول المجتمعة على العلف. وانصرفوا عن العجوز لا يولونه اهتماما.

بعد برهة, قال الرجل في عناء البؤساء, وكأنه يريد إثبات الظلم على الإنسانية جمعاء.

- سأعود هذا المساء, يا سيدي.

ليس لمن كتب عليهم الشقاء وسيلة للتشفي إلا إجبار العدالة والإحسان على الإقرار بالتقاعس والقصور, ومتى نجح البؤساء في إثبات الكذب والرياء على المجتمع جميعه أسرعوا بالارتماء بين أحضان الله.

وقبل أن يغلق العجوز الباب خلفه انطلق سيمونان يقول:

- يا له من مغفل عجيب!.. يبدو عليه أنه خارج لتوه من القبور...

ورد كبير الكتبة يقول:

- بل إنه كولونيل قديم يطالب بمتأخراته.

واعترض جوديشال قائلا:

- كلا. إنه بواب متقاعد.

وصاح بوكار:

أنا أراهنكم أنه أحد النبلاء.

وعاد جوديشال يؤكد:

- وأنا أراهن أنه بواب سابق. إن البوابين وحدهم هم الذين خصتهم الطبيعة بمثل هذا المعطف البالي "المزيت" الممزق من أسفله الذي يرتديه هذا المخلوق. ألم تروا حذاءه المكعوب الذي ينفذ منه الماء؟ أو رباط الرقبة الذي يقوم مقام القميص؟.. لاشك أنه قضى ليلته في عرض الطريق.

وقال ديكروش:

- يجوز أن يكون من النبلاء ثم عمل بوابا.. توجد حالات كثيرة من هذا القبيل..

وقال بوكار وسط ضحكات الجميع:

- كلا.. وإنما أؤكد أنه كان عاملا في مصنع بيرة سنة 1789, ثم تحول إلى كولونيل في عهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجمهورية.

واعترض جوديشال: قائلا:

- إنه لم يكن جنديا قط. وأراهنكم جميعا على صدق حدسي بدعوتكم إلى سهرة في الملهى على حسابي..

وأسرع سيمونان إلى النافذة ففتحها وأخذ يصيح:

- يا سيد, يا سيدا.

فالتفت إليه بوكار يسأله:

- ما الذي تفعله يا سيمونان؟.

- أناديه لأسأله إذا كان كولونيلا أو بوابا.. لابد أنه يعرف ذلك.

وضج الكتبة جميعا بالضحك, بينما عاد الرجل العجوز يصعد السلم ثانية.

وصاح جوديشال:

- ما الذي سنقوله له؟.

فرد عليه بوكار:

- دعني أتصرف أنا معه.

ودخل ذو المعطف العتيق ذليلا منكسرا خافضا ناظريه إلى الأرض. فلعله أراد بذلك أن يخفي الجوع الذي يعتمل في أحشائه إذ نظر باشتهاء إلى الطعام المتبادل بين الأيدي والأفواه.

قال له بوكار:

- هلا تفضلت يا سيدي بذكر اسمك ليعلم الأستاذ من أنت؟

- شابير.

وابتدره هوري بالسؤال بعد أن ظل طوال الوقت لا ينبس بكلمة, وقد أراد أن يساهم هو الآخر في الاستهزاء بالرجل المسكين:

- الكولونيل الذي قتل في موقعة أيلو؟..

- هو بعينه يا سيدي.

قالها الرجل في صوت هادئ حزين وانصرف.

- أف!..

- في داهية!..

- أوه!.

- يا حفيظ!.

- يا ليل، يا عين!.

- عال!.

وقف هوري، وقال لزميله الكاتب الرابع وهو يلكمه لكمة في كتفه تكفي لإلقاء ثور على الأرض:

- ستذهب إلى الملهى، يا سيد ديكروش، من غير أن تدفع شيئا..

وانساب سيل من الصرخات والضحكات والأصوات يعجز الكلام عن وصفه.

- إلى أي المسارح نذهب؟.

صاح كبير الكتبة:

- إلى الأوبرا!..

وعاد جوديشال يقول معترضا:

- أولا، أنا لم أحدد لكم أي مسرح، وفي استطاعتي إذا أردت أن آخذكم عند مدام ساكي.

فأسرع ديكروش يقول:

- مدام ساكي ليست ملهى.

فقال جوديشال:

- ما هو الملهى؟ فلنحدد أولا النقاط الموضوعية.. ما الذي راهنتكم عليه يا سادة؟ ملهى.. ما هو الملهى؟ شيء يرى.

وصاح سيمونان مقاطعا:

- على هذا الأساس, سوف تكون قد أوفيت برهانك إذا ما أخذتنا معك لترينا الماء وهو يجري في نهر السين..

ولكن جوديشال قال مكملا كلامه:

- .. يرى مقابل نقود.

واعترض ديكروش قائلا:

- ولكن هناك أشياء كثيرة يراها الإنسان مقابل نقود وهي ليست ملاهي. التعريف غير سليم.

- أصغوا إلي.

قال بوكان:

- أنت تهذي, يا عزيزي.

وعاد جوديشال يقول:

- ألا يعتبر متحف كورتيوس للشمع ملهى؟

فقال كبير الكتبة:

- كلا, إنما هو قاعة لعرض التماثيل فقط.

وثار جوديشال وهو يقول:

- أراهنكم مائة فرنك مقابل صلد واحد أن متحف كورتيوس يحوي كل ما يمكن أن يطلق عليه اسم ملهى. ففيه أشياء يراها الناس بأجور متفاوتة حسب المكان الذي يريد المرء أن يجلس فيه..

وهنا صاح سيمونان:

- شرم برم!.

فغضب جوديشال وقال:

حذار, أنت أيها الوغد!.. وإلا لطمتك على وجهك..

وهز الكتبة أكتافهم. أما جوديشال فقد أحرجته ضحكات زملائه, فترك تفسيراته اللغوية جانبا, وحاول طريقا آخر للإفلات من الرهان. فقال:

- وهل ثبت تماما أن هذا القرد العجوز لم يسخر منا ولم يهزأ بنا؟ ضميري يحدثني أن الكولونيل شابير قد مات وشبع موتا. وقد اقترنت زوجته من بعده بالكونت فيرو مستشار الدولة, ومدام فيرو إحدى عميلات المكتب.

وأسرع بوكار ينهي النقاش ويقول:

- تأجلت الدعوى إلى الغد, يا سادة. هيا إلى العمل.. إلى أوراقكم. ألا يمكن الانتهاء من شيء في هذا المكتب؟. أتموا لي هذه العريضة, إذ يتعين إعلانها قبل جلسة الدائرة الرابعة. إن القضية تنظر اليوم. هيا, إلى العمل.

وقال ديكروش وهو يعتقد أن الرأي الذي يبديه أقوى حجة من الرأي الذي جاء به جوديشال:

- لو كان هذا هو الكولونيل شابير حقيقة, لكان قد أسرع إلى إرسال طرف قدمه في مؤخرة هذا النصاب سيمونان حينما ادعى أمامه الصمم.

وعاد بوكار يقول:

- مادام لم يتقرر شيء بعد, فلنتفق على الذهاب في الدرجة الثانية بالمسرح الفرنسي لنرى الممثل تالما في مسرحية نيرون. أما سيمونان فيذهب إلى أعلى التياترو.

وجلس كبير الكتبة إلى منضدته, فأسرع الجميع إلى الجلوس مثله. وقال جوديشال:

- الصادر في يونيه سنة ألف وثمانمائة وأربع عشرة - بالحروف كاملة - هل أنتم معي؟

- نعم.

قالها الناسخان وكاتب الأصل معا, وهم يحدثون بأقلامهم الجارية على الورق المدموغ صريرا يملأ جو المكتب.

- .. ونحن نلتمس من هيئة المحكمة الموقرة .. قف. يجب أن أعيد قراءة الجملة, فلم أعد أفهم شيئا مما أقول ..

وجاء صوت بوكار الذي عاد إلى عمليات الجمع, يقول:

- ستة وأربعون.. لاشك أن هذا يحدث لك كثيرا...

وثلاثة.. تسعة وأربعون.

ولكن جوديشال تجاهل ملاحظة زميله, وبعد أن قرأ العريضة من أولها, عاد إلى الإملاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

.. نلتمس من هيئة المحكمة الموقرة أن تسمو إلى الغرض النبيل الذي أراده واضع هذا الأمر الكريم، وأن ترفض الادعاءات الظالمة التي تزعمها الهيئة العليا لإدارة جوقة الشرف، فتؤكد بذلك القضاء في معناه الواسع الذي أقمنا الدليل عليه...

وهنا قاطعه سيمونان الخبيث قائلا:

- مسيو جوديشال.. هل تريد كوبا من الماء؟

وقبل أن ينتبه جوديشال إلى الرد على هذه المداعبة السخيفة، قال بوكان:

- يا لك من مهذار لعين يا سيمونان!.. هيا، أعد ساقيك للسير السريع، وخذ هذه الأوراق، وطر بها إلى الأنفاليد في الحال.

وراح جوديشال يكمل الإملاء:

-... الذي أقمنا عليه الدليل هنا .. - أضيفوا - لصالح مدام .. - بالحروف كاملة - كونتيسة جرانليو.

وما إن سمع كبير الكتبة هذا الاسم حتى صاح:

- كيف هذا؟ كيف تضيع الوقت في تحرير عريضة لقضية كونتيسة جرانليو ضد جوقة الشرف؟ إنها قضية من مكتب آخر، وأتعابها ضئيلة ومحدودة.. كم أنت غبي!. هلا تركت هذه العريضة بنسخها وأصلها جانبا، وصرفت هذا الجهد وهذا الوقت إلى قضية تفارين ضد مؤسسة الملاجئ؟.. لقد تقدم بنا الوقت. سأحرر مذكرة صغيرة بالحيثيات، وأذهب بعدها بنفسي إلى المحكمة..

وكان هذا المشهد لحظة من آلاف اللحظات السعيدة التي يتذكرها الشبان بعد مضي السنين فيقولون: أيام زمان الحلوة!

*

عندما اقتربت الساعة من الواحدة صباحا، جاء الكولونيل شابير المزعوم يطرق باب الأستاذ درفي المحامي لدى محكمة السين الابتدائية، فأجابه البواب بأن الأستاذ لم يعد إلى منزله بعد. ولكن الرجل العجوز تمسك بالموعد الذي ضرب له وصعد إلى حيث يقطن المحامي الذي يعتبر، على الرغم من صغر سنه، واحدا من ألمع رجال القانون وأشدهم بأسا. وكانت دهشة القادم كبيرة عندما فتح له باب المسكن ووجد كبير الكتبة منهمكا في ترتيب ملفات قضايا اليوم التالي

على المنضدة في غرفة طعام مخدومه. ولم تكن دهشة الكاتب بأقل من دهشة الزائر. ولكنه حياه وطلب إليه أن يجلس فجلس.

قال العجوز وهو يتكلف الهدوء كالغريق الذي يتكلف الابتسام:

- ظننتكم والله تمكرون بي يا سيدي حينما حددتم لي أمس هذه الساعة المتأخرة لاستشارة الأستاذ..

فرد عليه كبير الكتبة من غير أن يتوقف عما هو فيه من عمل:

- لقد كان زملائي هذرين وصادقين معا. لقد اختار الأستاذ درفي هذه الساعة لدراسة القضايا وتلخيص وقائعها وترتيب طرق مباشرتها وإحكام وسائل الدفاع فيها. إن ذهنه الجبار لا يجد الانطلاق إلا في هذه الفترة التي يتوفر له فيها الهدوء والصمت اللازمين للعثور على الأفكار الجيدة. وأنت الآن ثالث الحالات, منذ بدء اشتغاله بالمحاماة, التي يبدي فيها مشورته في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل. سيأخذ الأستاذ, بمجرد عودته, في مناقشة القضايا وقراءة كل ما فيها. وسيقضي في ذلك أربع ساعات أو خمسا, ثم يناديني ويبلغني توجيهاته. وفي الصباح يقضي الفترة من العاشرة إلى الثانية في المحكمة أو في الاستماع إلى عملائه, ثم يصرف باقي النهار في مقابلاته. وفي المساء يتصل بعلية القوم للمحافظة على صداقاته واتصالاته. وهكذا لا يبقى له غير الليل لفحص قضاياه والغوص في أعماق القوانين وتدبير مخططات معاركه. إنه يرفض أن يخسر قضية واحدة من قضاياه العديدة, وهو يحب مهنته ويعشق عمله. على أنه ليس كسائر زملائه, يرضى بكل ما يصادفه من قضايا, أو يقبل كل ما يعرض عليه من منازعات. هذه هي حياته, حياة كلها عمل وجد ونشاط. ولذلك سيربح مبالغ طائلة..

ظل الرجل صامتا وهو يستمع إلى هذا الكلام, وارتسمت على وجهه الكئيب علامات ليس فيها من الذكاء أو الفهم شيء. فنظر إليه الكاتب برهة, ثم انصرف عنه تماما, ولم يعد يعيره أي اهتمام. وبعد لحظات دخل درفي وهو في ثياب الرقص. فتح له كبير الكتبة الباب, وعاد إلى ما كان فيه من عمل.

دهش المحامي الشاب عند رؤيته لهذا العميل العجيب جالسا في عتمة القاعة. وكان الكولونيل شابير لا يبدي حراكا وكأنه أحد التماثيل الشمعية المعروضة في متحف كورتيوس الذي أراد جوديشال أن يصطحب إليه زملاءه. وما كان هذا الجمود ليثير الدهشة لولا المظهر العام لهذا الإنسان الغامض. فقد كان هذا الرجل العسكري العجوز جامد الوجه نحيل الجسم, تختفي جبهته تحت خصلات الشعر المستعار الناعم الذي يغطي رأسه ويغطيه بالتجهم والأسرار.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد غارت عيناه خلف ما يشبه الغلالة الشفافة فبدتا وكأنهما من الأصداف القذرة التي ترتعش زرقتها في ضوء الشموع. وكان وجهه شاحبا ناحلا, حاد المعالم, بارز الأعضاء كوجوه الموتى. وقد التقت حول عنقه ربطة قذرة من الحرير الأسود. وأسفل الخط الداكن الذي ترسمه تلك الربطة كان الظلام منتشرا يلفلف كل ما بقي من جسم الرجل. فبرز الرأس وكأنه رسم تخطيطي من فنان عجول, أو صورة لإحدى شخصيات رامبرانت جردت من إطارها. وكانت حافة القبعة فوق الرأس ترسل ظلا كثيفا على الجزء الأعلى من الوجه, فتزداد باقي القسمات تحديدا, وتزداد التجعدات ظهورا, وتزداد الملامح شبها بالجثة الهامدة. وقد ساعد انعدام الحركة في هذا الجسم الجاف, وانعدام التعبير في هذه النظرة الجامدة على إظهار الرجل بمظهر المجنون المكتئب, الذي اجتمعت فيه علامة الانحطاط المميزة للبله والعته, مما تعجز الكلمات عن وصفه. ولكن هذا المظهر الكئيب لم يكن ليحول بين أي امرئ أوتي قدرا من قوة الملاحظة ودقة النظر, وخصوصا إذا كان محاميا, وبين الكشف في دخيلة هذا الرجل المحطم عن حزن دفين, وعن بؤس كامن ترك آثاره على وجهه فشوهه كما تشوه قطرات الماء المتساقطة من السماء التمثال المرمي الجميل. وما كان الطبيب الماهر ولا الكاتب العميق ولا القاضي الحصيف ليعجز أي منهم عن اكتشاف المأساة التي تضطرم داخل هذا الحطام, الذي يبدو وكأنه وجه خيالي خطته على هامش اللوحة ريشة الفنان الموهوب وهو يتحدث لاهيا مع أصدقائه.

وعندما نظر الرجل إلى المحامي, اعترته رعدة فيها تقلصات كتلك التي تهز كيان الشاعر, عندما يجتذبه الضجيج المفاجئ من بين تأملاته الخصبة وسط الليل الساكن. فأسرع يخلع قبعته وينتصب واقفا ليحيى رجل القانون الشاب. ولما كانت الجلدة المبطنة للقبعة من الداخل قد تشربت من جبهة الرجل ومن رأسه زيتا وشحما, فقد التصق بها شعره المستعار, وكشف عن أم الرأس, فبدا فيه ندب مستعرض طويل, يبدأ من مؤخرة الرأس, وينتهي عند محجر العين اليمنى, وقد برزت على طول حافتيه خياطات غليظة. وسقط الشعر المستعار الذي يخفي به الرجل العجوز رأسه المهشم, ولكن سقوطه لم يحمل المحامي ولا كاتبه على الضحك, وإنما أوحى إليهما منظر الجرح العميق بخاطر يقول "من هنا هرب العقل ودخل الجنون".

وقال بوكار في نفسه:

- إذا لم يكن هذا الرجل هو الكولونيل شابير حقيقة, فهو بلا شك جندي باسل عظيم.

وتوجه درفي إلى الرجل يسأله:

- إلى من لي الشرف أن أتحدث, يا سيدي؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إلى الكولونيل شابير.

- أيهم؟.

فقال العجوز:

- الذي مات في موقعه أيلو.

وعند سماع هذا الرد العجيب تبادل المحامي وكاتبه نظرة معناها:

- نحن أمام رجل مجنون.

وعاد الكولونيل يقول:

- سيدي, أود ألا استودع أحدا غيرك السر المحيط بموقفي.

من الأمور الملاحظة عادة عن المحامين, تلك الجرأة الطبيعية على التدخل في شئون الناس. ولعل سبب ذلك اعتيادهم على مقابلة العديد من خلق الله, أو لعله الإحساس العميق بالحماية التي تضفيها عليهم القوانين, وربما كان السبب ثقتهم الزائدة بأنفسهم وبالمهنة التي يزاولونها. وأيا كان السبب فهم يدخلون بلا خوف حيث لا يجوز لغيرهم الدخول, شانهم في ذلك شأن القساوسة والأطباء.

وأسرع درفي يوجه إلى بوكار إشارة من يده, انصرف الكاتب على أثرها, وبقى الرجلان معا. قال المحامي:

- إنني يا سيدي لا أبخل بوقتي في أثناء النهار, أما في منتصف الليل فدقائقي ثمينة. لذا أرجو منك الاختصار في القول والدقة في التعبير. أقصد إلى الوقائع من غير لف ولا دوران, وسأطلب منك بنفسي الإيضاحات اللازمة لي. تكلم.

وأجلس المحامي الشاب هذا العميل العجيب في مواجهته, وجلس هو إلى المنضدة, وراح وهو يستمع إلى الحديث يقلب في الملفات أمامه. قال الكولونيل:

- لعلك تعلم يا سيدي أني كنت أقود فرقة من الخيالة في موقعة أيلو. ولقد كان نصيبي وافرا في الهجوم المشهور الذي قام به مورا والذي تحقق بسببه النصر. ولقد شاء لي سوء الحظ, أن يصبح مصرعي حدثا تاريخيا ثابتا في النشرة العسكرية, التي تحدثت عنه تفصيلا. لقد كانت الخطوط الروسية ثلاثة, فشطرناها شطرين, ولكنها عادت فتجمعت واضطررنا إلى اجتيازها مرة أخرى في الاتجاه العكسي. وفي اللحظة التي كنا عائدين فيها إلى حيث يوجد الإمبراطور,

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد أن شتتنا جمع الروس، صادفتني سرية من فرسان العدو، فانقضضت على رجالها المعاندين، ولكن ضابطين روسيين عملاقين هاجماني في وقت واحد، ووجه إلي أحدهما ضربة سيف هائلة على أم رأسي شقت كل شيء حتى القلنسوة الحريرية السوداء التي كانت تغطي رأسي، وأحدثت في جمجمتي شجا عميقا. سقطت عن جوادي، وأسرع مورا إلى نجدتي فداسني بخيله هو ورجاله جميعا، ألف وخمسمائة رجل، لا أكثر. وحمل نبأ مصرعي إلى الإمبراطور وكان لي في قلبه مكان. وقد أراد الإمبراطور أن يحاول إنقاذ حياة الرجل الذي كان السبب في ذلك النصر العظيم. فأرسل اثنين من أطبائه للبحث عني ونقلي إلى حيث الرعاية والعلاج، وقال لهما وسط مشاغله الكثيرة "اذهبا وانظرا إذا ما كان ضابطي المسكين شابير حيا بعد". وإذ رآني الطبيبان على ما أنا عليه، بعد أن مرت فوقي خيول فرقتين كاملتين، انصرفا من غير أن يمسا نبضي، وقررا موتي بلا رجعة. وتحررت بعد ذلك شهادة وفاتي طبقا للقواعد المعمول بها في القانون العسكري.

وإذ سمع المحامي عميله يتحدث على هذا النحو الواعي العاقل، ويروي هذه الوقائع المترابطة رغم غرابتها، ترك ملفاته جانبا، واستند إلى المنضدة واضعا رأسه بين يديه، ونظر إلى الكولونيل وقال له مقاطعا:

- هل تعلم يا سيدي، إني محامي الكونتيسة فيرو أرملة الكولونيل شابير؟

- زوجتي!.. نعم يا سيدي. لذلك بعد جهود يائسة غير مجدية بذلتها طويلا لدى كثير من رجال القانون، قررت أن آتي إليك. سأحدثك عن مأساتي فيما بعد. دعني الآن أعرض عليك الوقائع واشرح لك كيف أتصور تسلسلها وتتابعها، فهناك أمور لا يعلمها إلا الله يفرض على جهلي بها أن اذكرها بالحدس لا باليقين. إذن يا سيدي، أقول افتراضا أن الجرح الذي أصبت به أحدث لي حالة تسمم، أو ربما أزمة من تلك الأزمات التي يطلقون عليها، فيما أظن، التخشب أو الموات. وإلا فكيف تفسر الإجراءات التي اتخذت وفقا لعادات الجيوش، إذ جردت من ملابسي وألقي بي في الحفرة المخصصة لدفن القتلى من الجنود؟ وهنا، أرجو أن تسمح لي بذكر واقعة لم تصل إلى علمي إلا بعد مرور وقت على الحادث الذي يسمونه موتي. لقد قابلت في شتوتجارت سنة 1814 صف ضابط كان يعمل في فرقتي من قبل، وهو الإنسان الوحيد الذي أقر بوجودي واعترف بي. سأحدثك عنه بعد قليل. لقد شرح لي هذا الصديق كيف قدر لي ألا أكون في عداد الموتى. قال إن جوادي أصيب بقذيفة في اللحظة التي أصبت أنا فيها بضربة السيف، وأن الجواد والفارس سقطا على الأرض كتلة واحدة، وشاء القدر أن استقر تحت جثة الدابة، فحماني ذلك من سنابك الخيل ومن القنابل معا. وعندما أفقت يا سيدي وجدت نفسي في وضع، وفي

جو قد لا يكفي الليل بطولة لأحدثك عنهما. لقد كان الهواء الذي أتنفسه قليلا وعفنا, وحاولت أن أحرك جسمي فلم أجد لذلك مكانا. فتحت عيني فلم أر شيئا. وكان انعدام الهواء المتجدد هو أقسى ما عانيت منه, وهو الذي نبهني إلى خطورة ما أنا فيه. فهمت في الحال أني لا محالة ميت. وكان هذا الإحساس دافعا لي على نسيان الآلام المبرحة التي صاحبت صحوتي. وطنت أذناي طنا شديدا. وسمعت, بل خيل لي أني سمعت أنينا ينبعث من أكداس الجثث التي كنت غارقا وسطها. وعلى الرغم من الضباب الذي أحاط بتلك اللحظات المظلمة, وعلى الرغم من انطماس ذاكرتي في شأن هذه الأحداث, وعلى الرغم من الآلام القاسية التي قدر لي أن ألقاها فيما بعد والتي أدخلت الاضطراب إلى تفكيري, على الرغم من ذلك كله مازلت حتى اليوم في بعض الليالي اسمع في الخيال تلك التأوهات المكتومة وتلك الأنات المختنقة. وما زلت أذكر ما هو أقسى وأبشع من الأنات والتأوهات: ذلك الصمت الذي لم أصادف له مثيلا في أي مكان آخر, صمت القبور. ورفعت يدي ورحت أتحسس الموتى, فأدركت أن فضاء يفصل ما بين رأسي وبين الركام الآدمي المكدس فوقي, واستطعت أن أقيس الفجوة التي شاءت أقدار لا أدري كنهها أن تتركها لي. يبدو أن العجلة أو الإهمال أو كليهما معا أديا إلى تساند جثتين من فوق رأسي, فكانت منهما زاوية كتلك التي يحدثها اللاهي عندما يريد تشييد بناء من أوراق اللعب. ورحت أحفر من حولي بأظافري في عناء اليائس واندفاعه. ولحسن حظي عثرت على ذراع لم تكن متصلة بجسد, ذراع كانت لعملاق شديد, فكانت فيها نجاتي, ولولاها لكنت من الهالكين. ورحت في حماس لا حاجة بي لأن أصفه لك, أحفر بتلك الذراع في الجثث التي تفصل بيني وبين طبقة التراب التي لا شك قد أهيلت من فوقنا. معذرة يا سيدي, إني أقول "فوقنا" وكأننا كنا أحياء في ذلك القبر!.. وبذلت جهدا فوق طاقة البشر.. وها أنا ذا أمامك الآن.. غير أني لا أدري حتى اليوم كيف استطعت اختراق جدار الأجساد الذي كان يفصل ما بيني وبين الحياة. قد تقول لي أني كنت استخدم أذرعا ثلاثا... ربما.. لقد ساعدني هذا المعول الذي كنت أعمل به في مهارة على إيصال بعض الهواء إلي من بين الجثث التي كنت أحركها, وحرصت على أن أكون شحيحا في أنفاسي. وأخيرا رأيت ضوء النهار, ولكن من خلال طبقة ثلجية يا سيدي. عندئذ أدركت أن برأسي شجا كبيرا, ولكن دمي أو دم رفاقي أو لعله دم الجواد الذي انبطح فوقي, لست أدري, كان قد تجمد وصار كالجبيرة تحيط بالرأس. وعلى الرغم من هذه الضمادة, أصابني الإغماء عندما التقى رأسي بالثلج, غير أن آثار الحرارة التي بقيت لي ساعدت على إذابة الثلج من حولي, وعندما أفقت وجدت نفسي على حافة صغيرة فأخذت أصرح بقدر ما أتيح لي من صراخ. وكانت الشمس في بدء شروقها. فأيقنت أن لي املاً في أن يسمعني أحد. وانتصبت واقفا وأنا استند بقدمي إلى جثث الموتى التي تحجرت, إلى أجساد هؤلاء الأبطال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذين سقطوا. وما كنت لأطأ بقدمي هذه المقدسات لولا ما أنا فيه. وكان الألمان يحتلون البقعة: وقد رأيتهم يهرولون فارين عند سماعهم صوتي في هذا المكان الذي لا يرون فيه إنسانا. وأخيرا أخرجت من الحفرة, التقطتني امرأة جريئة هالها أن ترى رأسي يبرز من باطن الأرض وكأنه نبتة عجيبة. وأسرعت المرأة تنادي زوجها وتعاون الإثنان على نقلي داخل كوخهما. ويبدو أني عدت ثانية إلى حالة الموات والتخشب وفقدت القدرة تماما على إدراك ما يحيط بي.

وظللت ستة أشهر بين الحياة والموت لا أتكلم حرفا واحدا, وإذا تحدثت كان حديثي هذيانا. وفي نهاية الأمر نجح منقذي في إدخالي إلى مستشفى هايلزبرج. لقد خرجت يا سيدي كما تعلم من جوف الحفرة عريانا كما ولدتني أمي, ولما عادت إلي ذاكرتي بعد ستة أشهر: وأدركت في صبيحة أحد الأيام أني الكولونيل شابير, طالبت الحرس من حولي أن يعاملوني باحترام أكثر مما كانوا يبدونه نحو الكائن البائس فاقد العقل والتمييز الذي كنته من قبل. فأغرق نزلاء المستشفى من حولي في الضحك وراحوا يهزأون بي. وقد أراد الحظ لي أن يؤيد الطبيب شفائي الكامل بعد أن أبدى اهتماما بعلاجي, ووجد في إثبات شفائي مفخرة له. وقد قصصت عليه حياتي السابقة, ورويت له تفاصيلها بذهن رائق وعقل سليم. فأسرع الرجل, وكان يدعى سباركمان, إلى تحرير وثيقة وفقا للأوضاع القانونية المعمول بها في تلك البلاد, أثبت فيها كيف خرجت بأعجوبة من حفرة الموتى التي دفنت فيها حيا, وحدد اليوم والساعة لإنقاذي على يدي المرأة وزوجها, وأبان نوع جروحي وموضعها, وأضاف إلى ذلك وصفا كاملا لي. هذه الأوراق الهامة يا سيدي ليست في حيازتي الآن, لا ولا الإقرار الذي حررته أمام الموثق في هايلزبرج بقصد إثبات شخصيتي. ومنذ اليوم الذي طردت فيه من تلك البلد بسبب أحداث الحرب, وأنا هائم على وجهي في كل مكان طريدا مشردا, أتسول لقمة الخبز, ويتهمني الناس بالجنون كلما قصصت عليهم قصتي. لم أجد نقودا ولم أكسب صلدا واحدا لأتمكن من الحصول على الوثائق التي تثبت صدق قولي وتعيدني إلى حياة المجتمع. كم من مرة احتجزتني آلامي وأوجاعي شهورا طويلة في بعض القوى التي تبذل فيها العناية للمرضى من الفرنسيين, ولكنهم كانوا يسخرون مني كلما قلت لهم أني الكولونيل شابير. ولطالما أغاظتني تلك الضحكات الساخرة وأثارتني, فساءت صحتي بل وأدخلتني المستشفى في شتوتجارت باعتباري من المجانين.هل ترى من حديثي معك الآن يا سيدي ما يبرر إيداع رجل مثلي مستشفى المجاذيب؟ وقضيت هناك سنتين, قضيتهما وأذناي لا تكفان عن سماع الحراس يرددون في كل يوم: "هذا الرجل المسكين يعتقد أنه الكولونيل شابير... يا له من بائس مجنون!.." في نهاية تلك المدة, اقتنعت بعدم جدوى الإصرار على رأيي, والتمسك بقضيتي, وأصبحت حزينا صاغرا هادئا, وأقلعت عن القول بأني الكولونيل شابير. وكان هدفي من ذلك الخروج من السجن الذي كنت فيه, والعودة

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

إلى وطني فرنسا ورؤية باريس مرة أخرى.. آه يا سيدي... رؤية باريس.. كم كان يراودني هذا الحلم!.. وكم ضعفت أمام تلك الرغبة الملحة!..

وعندما وصل الكولونيل شابير إلى هذا الجزء من الحديث توقف عن الكلام، وتاه في التأملات. فاحترم درفي صمته، وبعد برهة عاد الرجل يقول:

ـ في أحد أيام الربيع أطلقوا سراحي، وأعطوني عشرة ريالات، وقالوا إن حديثي أصبح حديث الرجل العاقل تماما، وأني لم أعد أزعم لنفسي شخصية الكولونيل شابير. وحقك يا سيدي، لقد كنت في تلك الفترة، بل وما زلت في بعض الأحيان حتى الآن، أمقت اسمي وأكره ذكره. بودي لو كنت إنسانا آخر غيري. إن إحساسي بما لي من حقوق هضمت يقتلني كل يوم. لو أن المرض الذي أصبت به أفقدني ذكري حياتي الماضية لكنت اليوم سعيدا هانئا، ولكنت عدت إلى الخدمة متخذا لنفسي أي اسم، ومن يدري؟. ربما كنت وصلت الآن إلى رتبة الفلدرمارشال في النمسا أو في روسيا..

Telegram:@mbooks90

قاطعه المحامي قائلا:

ـ لقد أشعت الارتباك يا سيدي في أفكاري كلها.. لكأني في حلم بعيد وأنا أصغي إليك. بالله، هلا توقفنا برهة؟.

فرد عليه الكولونيل في اكتئاب:

ـ أنت الإنسان الوحيد الذي أصغى إليّ في صبر وأناة. ما من واحد من رجال القانون رضي أن يقرضني الجنيهات العشرة التي تتيح لي أن آتي من ألمانيا بالأوراق اللازمة لبدء قضيتي.

ونسي المحامي عند سماعه هذه الكلمات الأخيرة حالة الرجل المؤلمة وقال له:

ـ أية قضية؟.

ـ كيف هذا يا سيدي؟ أليست الكونتيسة فيرو زوجتي؟ إنها تستولي على إيراد ثلاثون ألفا من الجنيهات هي ملك لي، ولا تريد أن تعطيني صلدا واحدا. إنني حينما أذكر هذه الأشياء أمام المحامين وأمام العقلاء من الناس، حينما أعرض أنا الفقير المتسول فكرة رفع الدعوى على كونت وعلى كونتيسة، حينما أثور أنا الميت ضد شهادة الوفاة، وعقد الزواج، ووثائق الميلاد، لا يكون منهم إلا الاعتراض والطرد، ويكون موقفهم مني إما ذلك الموقف المؤدب الجاف الذي تجيدون اتخاذه للتخلص من البؤساء والمحتاجين، وإما موقف العنف الذي يلجأ إليه أولئك الذين يظنون أنهم أمام مجرم أثيم أو مجنون خطير. لقد دفنت من قبل تحت جثث الموتى وها

أنذا اليوم أدفن تحت أجسام الأحياء, تحت الأوراق والوقائع, تحت أقدام المجتمع بأسره الذي يريد أن يفنيني في جوف الأرض.

قال المحامي:

- تفضل يا سيدي. أكمل حديثك الآن.

صاح الرجل العجوز المسكين وهو يمسك بيد الشاب:

- "تفضل"! هذه المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة مؤدبة منذ أن:

وبكى الكولونيل وانحبست الكلمات في حلقه.. وكان في نظرته وفي حركته وفي صمته شيء من البلاغة العميقة ما أثر في درفي كل التأثير وأتم في قلبه الاقتناع. فقال:

- اسمع يا سيدي, لقد كسبت الليلة ثلثمائة فرنك في القمار, وفي استطاعتي أن أخصص من هذا المبلغ نصفه لإسعاد رجل مثلك. سأبدأ في الحال الإجراءات والمساعي اللازمة لأحصل لك على الأوراق التي حدثتني عنها. وإلى أن تصل إلينا تلك الأوراق سأعطيك كل يوم مائة صلد لنفقتك. وإذا كنت الكولونيل شابير حقيقة فسوف تغفر لي ضآلة هذا القرض, مراعيا أنني شاب مازال يسعى إلى شق طريقه نحو الثراء. والآن أكمل الحديث.

ظل الكولونيل برهة مشدوها لا حراك به. فلا شك أن البؤس الشديد الذي مر به قد هدم في قلبه العقائد التي يؤمن بها. لعله وهو يسعى جاهدا إلى إثبات أمجاده العسكرية, وإلى استعادة ثروته, وإلى إبراز شخصيته في الوجود, إنما يستجيب إلى ذلك الإحساس المبهم الكامن في أعماق الرجال جميعا, والذي نحن مدينون له بأبحاث الكيماويين, وبشهوات المجد والسيادة, وباكتشافات الفلك والطبيعة, وبكل الدوافع التي تحمل الإنسان على السمو وإلى التكاثر بالأعمال والأفكار معا. ونسي الكولونيل شابير نفسه ولم تعد ذاته تشغل في ذهنه غير مكان قصي, وغدا كالمقامر الذي يرى في نشوة النصر, أو في لذة الكسب, شيئا يسمو على قيمة الكسب نفسه. وهكذا كانت كلمات المحامي الشاب سحرا ومعجزة في سمع الرجل الذي تنكرت له زوجته, ولفظته العدالة, وتجهم له المجتمع بأسره عشر سنوات طوالا. كيف قدر له أن يجد عند هذا المحامي تلك القطع الذهبية العشر التي امتنع عليه نوالها كل هذا الوقت, ورفضها عنه أناس عديدون بطرق عديدة؟. ما أشبه بتلك المرأة التي ظلت خمسة عشر عاما تشكو الحمى, فلما شفيت منها ظنت إنها إنما استبدلت مرضا بآخر. هناك ألوان من الهناء لا يثق فيها صاحبها, فما أن تحل به حتى تسقط عليه كالصاعقة فتحرقه وتدمره تدميرا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان شعور الرجل بالجميل أقوى من أن يستطيع التعبير عنه, فلاذ بالصمت حتى ليظنه الإنسان جاحدا. ولكن درفي أدرك ما في هذه النفس من صدق وإخلاص, وما خلف هذا السكوت وهذا التبلد من أحاسيس وانفعالات. فلو كان الرجل أفاقا دعيا لوجد إلى الكلام سبيلا.

- إلى أين وصلت من الحديث؟.

قالها الكولونيل في براءة الطفل وسذاجة الجندي, إذ كثيرا ما يغلب جانب الطفولة في الجندي الباسل, ودائما يغلب جانب الجندية في الطفل الغرير.

رد عليه المحامي قائلا:

- إلى شتوتجارت, عند خروجك من السجن.

وسأل الكولونيل:

- هل تعرف زوجتي؟.

فمال درفي برأسه جانبا وقال:

- نعم.

- كيف هي الآن؟.

رائعة كشأنها دائما.

وأشار العجوز بيده, وبدا وكأنه يلوك في صدره حزنا دفينا يحتمله في صبر رهيب يتميز به كل الرجال الذين عرفوا الحرب وخاضوا المعارك واكتووا بالنيران وسط الدماء. ثم عاد إلى متابعة الحديث متصنعا الابتهاج. ألم يخرج لتوه من غياهب القبر مرة أخرى؟. ألم ينجح لساعته في تحطيم طبقة من الجليد أصلب من تلك التي جمدت رأسه من قبل؟. ألم يعد الآن إلى استنشاق هواء عليل لم يذق له طعما منذ سنوات؟. قال:

- سيدي, لو كنت شابا جميلا لما صادفتني كارثة من الكوارث التي منيت بها. إن النساء يثقن في أولئك الذين ينثرون في أحاديثهم كلمات الحب. فإذا سمعنها جرين وعدون, وضحين بأنفسهن, وأتين الحيل, ولجأن إلى الدسائس, وأكدن الوقائع, ومشين مع الشيطان, من أجل من أحببن. كيف كان يمكنني أن اجتذب إلى نفسي اهتمام امرأة؟. لقد كان وجهي وجه أموات, وكانت ملابسي أسمالا, وكنت أقرب إلى الإسكيمو شبها مني إلى الرجل الفرنسي, أنا الذي كنت أعد فيما مضى, عام 1799, سيد المهندمين وأبرع المتأنقين, يوم أن كنت شابير أحد أعيان

الإمبراطورية البارزين!.. القصد.. في اليوم الذي طردوني فيه طرد الكلاب، قابلت صف الضابط الذي حدثتك عنه من قبل، وكان اسم هذا الزميل بوتان. وكنا، هو وأنا، أفقر صديقين رأتهما عين. لقد قابلته في طريق النزهة، وعرفته على التو ولكنه لم يعرفني. وذهبنا معا إلى إحدى الحانات، وهناك ما كدت أذكر له اسمي حتى انطلقت من فمه ضحكة كصوت المدفع. وقد أحزنتني هذه الضحكة يا سيدي حزنا عنيفا، فقد كشفت لي عن كل ما نالني من تغيير. أأصبحت إذن مجهولا، حتى لأقرب أصدقائي، وأكثرهم تعلقا بي، وأشدهم إحساسا بالجميل لي؟ لقد أنقذت حياة بوتان فيما مضى، وكان ذلك مني ردا لمعروف له أسداه إلي. وكان ذلك في إيطاليا، في بلدة رافنا. وكان البيت الذي حال فيه بوتان بيني وبين طعنة الخنجر الموجهة لي بيتا مشبوها، لم أكن في ذلك الوقت قد وصلت إلى رتبة الكولونيل، وإنما كنت فارسا فقط مثل بوتان. لقد صاحبت تلك الحادثة، لحسن حظي، وقائع لم يعرفها غيري وغير بوتان. فلما أن ذكرتها له تلاشت شكوكه، وأيقن أني أنا الكولونيل شابير حقيقة. وقصصت عليه ما صادفني في حياتي العجيبة. ولقد قال لي أن عيني أصابهما التغيير، وأن صوتي لم يعد كما كان، وأن شعري قد زال وكذلك أسناني وحاجبي، وأن بشرتي قد تحولت إلى لون المبروصين، ولكنه بعد أسئلته العديدة التي وجهها لي اقتنع أخيرا أن الشحاذ الذي أمامه هو رئيسه القديم الكولونيل شابير. راح يقص علي ذكرياته التي لا تقل غرابة عن ذكرياتي. لقد عاد من أقاصي الأرض من حدود الصين، حيث أراد أن يذهب لاجئا بعد فراره من سيبريا. وأبلغني نبأ الكوارث التي أسفرت عنها حملة روسيا، وتنازل نابليون عن العرش في المرة الأولى. وكانت هذه الأنباء من أسوأ ما سمعته وقعا على نفسي. كنا أنا وهو حطامين عجيبين بعد أن تقاذفتنا الحوادث على وجه الأرض، كما تتقاذف الأمواج قطع الحجارة على شواطئ المحيطات.. لقد رأينا مصر وسوريا وأسبانيا وروسيا وهولندا وألمانيا وإيطاليا ودلماسيا وانجلترا والصين وبلاد التتار وسيبيريا، ولم يعد ينقصنا غير الذهاب إلى الهند وإلى أمريكا ولما كان بوتان أصح مني جسما وأوفر مني قوة، فقد تطوع عني بالذهاب إلى باريس مسرعا، وإخبار زوجتي بما أنا عليه من حال، وكتبت لمدام شابير رسالة بها كل التفاصيل.. وكانت تلك هي الرسالة الرابعة مني إليها يا سيدي. لو أن لي أقارب، لما وقع لي كل الذي حدث، ولكن اعترف لك أني واحد من أبناء الملاجئ، جندي لا مال له إلا شجاعته، ولا أسرة له إلا العالم جميعه، ولا وطن له إلا فرنسا، ولا حامي له إلا الله. لعلي قد أخطأت القول، فقد كان لي أب، هو الإمبراطور!.. آه، لو كان موجودا هذا الرجل العزيز! ورأى ضابطه المحبوب شابير في حالتي هذه !. إذن لنال منه الغضب كثيرا. هل من حيلة، يا سيدي؟. لقد أفل نجمنا وغربت شمسنا وأصبحنا نقاسي البرد الآن. لقد التمست لزوجتي في صمتها المعاذير من ظروف السياسة وتقلباتها. وذهب بوتان. لقد كان أسعد مني حظا، فقد كانت له دبتان

بيضاوان مدربتان أكبر تدريب, وتساعدانه على مواجهة تكاليف الحياة. ولم يكن في استطاعتي مصاحبته في هذه الرحلة, إذ لم تسمح لي أوجاعي بالسير لمسافات طويلة.. وقد بكيت, يا سيدي, عندما افترقنا بعد أن سرت إلى جانبه وإلى جانب دبتيه قدر ما سمحت لي به قدماي. وفي بلدة كارلسورو أصبت بنوبة آلام في الرأس وقضيت ستة أسابيع ملقى على القش في إحدى الحانات.. قد يطول بي الحديث كثيرا, يا سيدي, إذا ما قصصت عليك كل المآسي التي تخللت حياة التسول التي عشتها. على أن الآلام النفسية التي تفوق في ضراوتها وقسوتها الآلام الجسيمة لا تثير في الناس الشفقة, لأنها لا ترى. إني أذكر كم بكيت طويلا أمام أحد الفنادق في استرازبرج, كنت قد أولمت فيه فيما مضى وليمة فاخرة, ولم أجد فيه من بعد, من يتصدق علي بكسرة من الخبز. وكنت قد رتبت مع بوتان خط السير الذي أتبعه في رحلتي البطيئة, فكنت في كل بلدة أحل بها, أذهب إلى مكتب البريد لأسأل هل من رسالة أو من نقود جاءت باسمي هناك. ووصلت إلى باريس من غير أن أعثر على رسالة ولا على نقود. كم من مرة ساورني اليأس وانتابتني الهواجس!. وكنت أسأل نفسي: هل مات بوتان؟. ولقد مات بوتان المسكين فعلا في بلدة واترلو, علمت بموته فيما بعد وبطريق الصدفة المحضة. لا شك أن وساطته لدى زوجتي لن تأتي بطائل. وأخيرا دخلت باريس في اللحظة التي دخل إليها جنود القوزاق((1)). وكان ذلك ألما جديدا يضم إلى آلامي. وحينما رأيت الروس في أرض فرنسا نسيت أني حافي القدمين خالي الوفاض. نعم يا سيدي, فقد كانت ثيابي بالية, وفي الليلة السابقة على دخولي إلى باريس اضطررت إلى المبيت في العراء في غابة كلاي. وقد تسببت لي برودة الليل في مرض, لا أدري ما هو, ظهرت علي أعراضه أثناء اجتيازي لضاحية سان مرتان فسقطت مغمي علي عند باب أحد الحدادين. ولما أفقت وجدت نفسي على سرير في المستشفى العام. وقضيت هناك شهرا سعيدا, أخرجت بعده من المستشفى. كنت بلا نقود, ولكن في صحة جيدة, ووسط شوارع باريس الحبيبة. سرت وملء قلبي السعادة إلى شارع مونبلان, حيث ظننت أن زوجتي تقيم في قصر كان ملكا لي, لكني لم أجد القصر, فقد بيع وهدم وشيدت في حدائقه عدة بيوت. ولما كنت أجهل أن زوجتي قد تزوجت من مسيو فيرو, فلم أستطع الحصول على أية بيانات. وأخيرا توجهت إلى محام عجوز كان يرعى قضاياي فيما مضى, فوجدته قد مات وخلف عملاءه إلى شاب من زملائه. وأخبرني هذا الأخير, وأنا في فرط الدهشة, أن تركتي قد فتحت وصفيت, وأن زوجتي قد تزوجت, وأن ولدين ولدا لها من هذا الزواج. ولما ذكرت له أني الكولونيل شابير, أصابته نوبة ضحك شديدة, جعلتني أتركه من غير إبداء أي اعتراض عليه. فقد تعلمت من مستشفى المجاذيب في شتوتجارت أن أخشى مستشفى المجاذيب في باريس, وقررت أن يكون سعيي في حرص وحيطة. ولما أن عرفت محل إقامة زوجتي توجهت إليها والأمل يملأ

قلبي..

وتوقف الكولونيل لحظة ثم عاود بعدها الكلام وفي صوته حنق شديد:

- هل تصدق يا سيدي؟. حينما استعرت لنفسي اسما تقدمت به لم أحظ بمقابلتها، وحينما تسميت باسمي أغلق بابها في وجهي. وقد اضطررت لأتمكن من رؤية الكونتيسة وهي عائدة من المرقص أو المسرح عند الفجر، أن أقضي الليالي الطوال قابعا إلى جوار الحجر القائم عند باب قصرها. وكانت عيناي تغوصان داخل عربتها، التي تمرق من أمامي مروق السهم الخاطف، وبها تلك المرأة التي كانت زوجة لي ولم تعد من نصيبي اليوم.

وفجأة انتصب الرجل واقفا أمام درفي وصرخ في صوت مخنوق:

- منذ ذلك اليوم لم أعد أعيش إلا للانتقام، للانتقام وحده، إنها على علم بوجودي. وقد تلقت مني منذ عودتي رسالتين كتبتهما بنفسي. إنها لم تعد تحبني، أما أنا فأجهل إذا كنت أحبها أو أمقتها.

إني موزع بين الرغبة فيها وبين لعنها. إنها مدينة لي بكل ما تتمتع به الآن من ثروة وهناء، ومع ذلك رفضت أن تمد إلي يد العون، وأن تلقي إلي بمساعدة مهما صغرت. أراني أحيانا لا أدري ما الذي أصنعه..

وهنا ألقى الكولونيل العجوز بنفسه على المقعد، وعاد إلى صمته وسكونه. وظل درفي لا يفتح فمه بكلمة، وهو يحدق النظر في الرجل المنهار أمامه. وبعد برهة قال:

- إن القضية خطيرة. حتى لو فرضنا صحة الأوراق الموجودة في هايلزبرج، فلست أرى ما يدل على الوصول إلى نتيجة في أول الأمر. سننظر الدعوى أمام محاكم ثلاث على التوالي، يجب التفكير في هدوء في قضية كهذه لها هذا الطابع الاستثنائي.

رفع الكولونيل رأسه في كبرياء عند سماعه هذه الكلمات وقال في صوت هادئ:

- سيدي، إذا فشلت، فإني أعرف كيف أموت. ولكن لن أموت وحدي.

وغاب الرجل العجوز في خيالاته، ولمعت عيناه بنار الرغبة وحب الانتقام معا. وعاد المحامي يقول:

- ربما اضطررنا إلى عرض الصلح وقبول الترضية.

فقال الكولونيل شابير:

ـ الصلح والترضية؟.. هل أنا ميت أم أنا حي؟..

وقال المحامي:

ـ هل آمل منك يا سيدي أن تتبع ما سوف أقدمه لك من نصح وتوجيه؟. ستكون قضيتك قضيتي، وستتحقق بنفسك قريبا من الاهتمام الذي سأوجهه لحالتك هذه، التي لا مثيل لها في تاريخ القضاء. وإلى أن نبدأ العمل سأعطيك رسالة مني إلى الموثق المشرف على شئوني ليسلمك بإيصال منك خمسين فرنكا كل عشرة أيام، فليس مما يليق أن تحضر إلى هنا لتلقى هذا العون. وإذا كنت الكولونيل شابير حقيقة فأنت أرفع من أن تعوزك الحاجة إلى أحد. سأجعل من هذه المبالغ قرضا ـ فأنت رجل لك أموال سوف ترد إليك. أنت رجل ثري.

هبطت تلك الكلمات الرقيقة بردا وسلاما على قلب الرجل العجوز، فانحدرت العبرات من عينيه. وأسرع درفي واقفا، فليس من عادة المحامين أن يبدو على وجوههم التأثر والانفعال. وانتقل إلى غرفة مكتبه، ثم عاد منها بعد لحظة وبيده رسالة مفتوحة سلمها إلى الكولونيل شابير. وحينما أمسك الرجل المسكين بالرسالة بين أصابعه أحس في داخلها بقطعتين ذهبيتين.

وقال المحامي:

وهل لك أن ترشدني إلى بيان الأوراق، وأن تذكر لي اسم البلدة واسم المملكة التي هي تابعة لها؟.

أخذ الكولونيل يملي على المحامي البيانات التي طلبها، ويصحح له أسماء الأماكن والأشخاص. ثم تناول قبعته بيد، ونظر إلى درفي، ومد له يده الأخرى، يدا خشنة قوية، وقال له في صوت هادئ رزين:

ـ والله، يا سيدي، ستكون أنت بعد الإمبراطور، الرجل الذي أدين له بكل شيء. أنت رجل شجاع.

وصافح المحامي الكولونيل، ثم اصطحبه حتى أول السلم، وهو يضيء له الطريق. ثم عاد وقال لكبير كتبته:

ـ لقد سمعت الآن يا بوكار، قصة تكلفني ربما خمسة وعشرين جنيها. فإذا كنت وقعت ضحية رجل نصاب سرقني، لن أندم على ما ضاع من نقودي، لأني أكون بذلك قد شاهدت أبرع ممثل في هذا العصر.

*

لما أصبح الكولونيل في الشارع, تحت أحد المصابيح, أخرج من الرسالة القطعتين الذهبيتين اللتين أعطاهما المحامي له, وراح ينظر إليهما مليا في الضوء.. ها هو ذا ينظر إلى الذهب ويلمسه للمرة الأولى منذ تسع سنوات كاملة.. وقال لنفسه:

- ها أنا ذا أستطيع الآن أن أدخن السيجار بعد طول الحرمان.

بعد انقضاء أشهر ثلاثة على تلك الزيارة الليلية التي قام بها الكولونيل شابير لدى المحامي درفي, حضر عند هذا الأخير الموثق الذي كلف بدفع المعونة إلى هذا العميل العجيب. جاء يستشيره في إحدى القضايا الهامة. وفي بدء حديثه معه طالبه بدفع مبلغ ستمائة فرنك قدمها لحسابه إلى الرجل العجوز.

وكان هذا الموثق, ويدعى كروتا, شابا اشترى منذ وقت قريب المكتب الذي كان يعمل به كبيرا للكتبة, بعد أن فر صاحبه على أثر عملية إفلاس شنيعة ارتكبها. وقال الموثق الشاب لصديقه المحامي وهو يضحك:

- ها أنت تتسلى بالإنفاق على رجال الجيش القديم.. فرد عليه المحامي قائلا:

- أشكرك يا صديقي العزيز إذ ذكرتني بهذا الموضوع.. لن تتعدى أريحيتي ولن يتجاوز كرمي حدود الخمسة والعشرين جنيها, أخشى أن تكون وطنيتي قد خدعتني وغررت بي.

في اللحظة التي ختم فيها درفي كلامه هذا رأى على منضدته اللفافات التي وضعها كبير كتبته هناك. ولفت نظره شكل الأختام المستطيلة والمربعة والمثلثة, بألوانها الحمراء والزرقاء التي وضعتها مكاتب البريد البروسية والنمساوية والبافارية والفرنسية على رسالة من بين تلك اللفافات. فضحك وقال:

Telegram:@mbooks90

- ها نحن نقترب من نهاية المهزلة.. سنرى إذا كنا قد خدعنا أم لا..

وتناول الرسالة ثم فضها, ولكنه لم يستطع قراءتها, فقد كانت مكتوبة باللغة الألمانية, فأسرع إلى باب مكتبه وفتحه ومد الرسالة إلى كبير كتبته وهو يقول:

- أسرع يا بوكار بنفسك, خذ هذه الرسالة واحصل لي على ترجمتها, وعد إلي بسرعة..

إنه موثق برلين, الذي كتب إليه المحامي من قبل, ينبئه بأن صور الوثائق التي طلبها سوف تصل إليه بعد أيام قليلة من وصول تلك الرسالة.. وقال الموثق في رسالته أن الوثائق المذكورة قانونية تماما وتحمل جميع التصديقات اللازمة لإمكان الاحتجاج بها أمام القضاء. وقال أيضا

أن الشهود الذين أقروا بصحة المحاضر التي حررت, مازالوا جميعهم تقريبا على قيد الحياة في بلده أيلو البروسية, وأن المرأة التي يدين لها الكونت شابير بالحياة مازالت تعيش حتى تلك اللحظة في إحدى ضواحي مدينة هايلزبرج.

ما كاد بوكار ينتهي من عرض ملخص الرسالة على مسامع المحامي درفي حتى صاح هذا الأخير قائلا:

- أصبح الأمر جادا..

ثم التفت إلى الموثق كروتا وقال له:

- هلا قلت لي يا صديقي؟. سأحتاج إلى بعض البيانات التي توجد بغير شك في مكتبك.. ألم يكن ذلك النصاب العجوز روجان هو...

فأسرع الموثق كروتا يقاطع صديقه وهو يضحك ويقول:

- بل إننا نسميه دائما "روجان المسكين سيء الحظ"..

- ... ألم يكن روجان المسكين سيء الحظ, الذي اختلس من عملائه ثمانمائة ألف فرنك, وأنزل الخراب والبؤس بكثير من الأسر, ألم يكن هو الذي أشرف على تصفية تركة شابير؟ يبدو أني قرأت شيئا من هذا القبيل في الأوراق الخاصة بقضايا فيرو عندي..

رد عليه كروتا:

- نعم .. كنت في ذلك الوقت الكاتب الثالث. أذكر أني درست هذه التصفية جيدا ونسخت كثيرا من الأوراق الخاصة بها. روز شابوتل زوجة وأرملة هياسانت الشهير باسم شابير. كونت شابير. حامل رتبة الفارس في جوقة الشرف.. كانا متزوجين بغير عقد مالي, فأموالهما إذن مشاع بينهما. وإذا لم تخني الذاكرة فإن أصول التركة قدرت بستمائة ألف فرنك. وكان الكونت شابير قبل زواجه قد أوصى وصية يترك بها عند وفاته ربع ثروته لمستشفيات باريس, والربع الثاني للدولة .. وقد تمت القسمة فعلا, وبيعت التركة ووزع ثمنها بين المستحقين, إذ أن المحامين وقتئذ ابدوا في هذا الشأن نشاطا ليس من عاداتهم. وقد شاء الوغد الذي كان يحكم فرنسا في ذلك الوقت, أن يصدر مرسوما وهب به أرملة الكولونيل الجزء من التركة الذي كان من حق الضرائب..

- إذن.. لا تتجاوز ثروة الكونت شابير الشخصية الثلاثمائة ألف فرنك؟..

فرد عليه كروتا ممازحا:

- ها أنت يا صديقي قد أصبت التقدير.. إنكم أنتم أيها المحامون ترون أبعد مما يرى الناس، وإن كانت لكم قدرة على الدفاع اليوم عما كنتم تهاجمونه بالأمس، مع المهارة الكاملة في الحالتين على السواء..

قرأ المحامي في أسفل الإيصال الأول الذي قدمه له الموثق العنوان الذي يقيم فيه الكونت شابير: ضاحية سان مارسو، شارع بيتي بانكييه، طرف المدعو فرنيو، وهو أحد صف الضباط القدماء في الحرس الإمبراطوري، أصبح فيما بعد علافا للمواشي. وقد اضطر درفي إلى التوجه إلى هذا العنوان بحثا عن عميله، وذهب إلى هناك راجلا بعد أن رفض الحوذي سلوك الطريق غير الممهد ذي الحفر العميقة التي يتعذر على العربة السير فيها.. ووقف المحامي يدير نظره في جميع الاتجاهات.. وأخيرا اكتشف في أحد جوانب الطريق، بين حائطين أقيما من الطين وفتات العظام، عمودين من الحجارة، قد نالت منهما عجلات العربات، وأحدثت فيهما شقوقا على الرغم من الحواجز الخشبية المحيطة بهما. وفي أعلى العمودين استعرضت كتلة تعلوها قشرة من القرميد، وقد كتب عليها هاتان الكلمتان باللون الأحمر: "فرنيو - علاف".. وإلى جوار الكلمتين من اليمين رسمت صورة كومة من البيض.. ومن اليسار صورة بقرة حلوب، وقد خطت هذه الرسوم كلها باللون الأبيض.. كان الباب مفتوحا، ويبدو أنه يظل كذلك اليوم بطوله، وفي الفناء الواسع، في مواجهة الباب، يقوم بيت متهالك من تلك البيوت التي ترى في ضواحي باريس، والتي لا يمكن مقارنتها بأصغر المنازل المقامة في الريف، والتي تشاركها في مظهر الفقر والبؤس، من غير أن تقاسمها الشاعرية والجمال.. ذلك أن الأكواخ الريفية، وسط الحقول، تتمتع بالحسن الذي يضفيه عليها الهواء العليل، والخضرة اليانعة، ومنظر الزرع والتلال، والطرق الملتوية، والكروم المتسلقة، والحشيش النامي، والعشب الجاف وأدوات الفلاحة.. أما في باريس فهول الفقر لا يزيده بشاعة إلا قبح المنظر.. وبدا هذا البيت، رغم حداثة بنائه، متداعيا منقضا وما من مادة استخدمت في إقامته ووضعت في مكانها الصحيح.. وإنما كانت كلها من نتاج عمليات الهدم التي تتوالى كل يوم في أنحاء باريس.. ألم يقرأ درفي على عارضة إحدى النوافذ حروفا تشير إلى أن هذه القطعة كانت فيما مضى جزءا من لافتة لحانوت يبيع الملابس؟.. ولم تكن النوافذ متشابهة فيما بينها، ولا موزعة توزيعا منسقا.. وكانت حجرات الطابق الأرضي مرتفعة من جهة، غاطسة من جهة أخرى.. وفيما بين هذا البيت وباب الدخول انتشرت بركة مملوءة بالسباخ، تتجمع فيها مياه المطر ومياه الدار معا.. وانتشرت على الحائط الذي يستند إليه البيت، والذي يبدو أقوى من الحوائط الأخرى، مجموعة من الصناديق المخرمة سكنتها أسراب عديدة من الأرانب سريعة التكاثر.. وإلى يمين الباب أقيمت حظيرة المواشي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يفصلها عن البيت مكان اللبن ويعلوها مخزن العلف، وإلى يساره امتد بيت الدواجن وإسطبل الخيل.. وسقيفة الخنازير، وقد صنعت، كما صنع سقف البيت نفسه من ألواح الخشب القلقة، جمعت إلى بعضها بالمسامير، وغطيت بالقش والغاب الجاف. وقد لاحظ درفي في ذلك الفناء دلائل العجلة والاندفاع التي تنبئ عن العمل في وقت معين، كما هو شأن جميع الأماكن تقريبا التي تعد فيها عناصر الوجبة الهائلة التي تلتهمها باريس كل يوم.. فهنا تلك الأبنية الكبيرة من الصفيح المعوج التي تنقل فيها الألبان، وهناك أوعية القشدة مبعثرة في أحد الأركان مع سداداتها البيضاء..والخرق الممزقة التي تستعمل في تنظيف تلك الأوعية تتأرجح منشورة فوق الخيوط المنصوبة على أوتاد لتجف في الشمس. وفي وسط الفناء أمام الإسطبل المغلق وعلى بعد خطوات من العربة وقف حصان من ذلك النوع الذي لا وجود له إلا عند بائعي اللبن، بينما راحت عنزة نحيفة تأكل أوراق الكرمة الذابلة المتربة، التي تغطي جانبا أصغر مشققا من جدار البيت.. وانكفأت هرة على أوعية القشدة الفارغة تلعقها.. وانزعجت الدجاجات عندما اقترب درفي منها فطارت صارخة، وعندئذ أطلق كلب الحراسة نباحا مسعورا..

قال المحامي لنفسه بعد أن مر بنظره على هذا المشهد الكريه:

- أيمكن أن يكون هنا مقام الرجل الذي كان له فضل النصر في موقعة أيلو..!

وكان البيت في حراسة غلمان ثلاثة، صعد أحدهم إلى أعلى العربة المحملة بالعلف الأخضر، وراح يقذف بقطع الأحجار إلى فوهة مدخنة البيت المجاور، آملا بذلك أن تسقط الأحجار داخل قدر الطبخ.. أما الثاني فقد انصرف إلى خنزير يجره بعنف نحو عربة أخرى مالت حافتها حتى مست الأرض، بينما تعلق الثالث بالعربة من ناحيتها الأخرى مستعدا لجذبها إلى أسفل متى استقر الخنزير عليها...

ولما سألهم درفي عما إذا كان مسيو شابير يقيم في هذا المكان لم يجبه منهم أحد، ونظروا كلهم إليه في بله وخبث، إذا جاز أن يجتمع الخبث مع البله. أعاد عليهم السؤال، ولكنه لم يفز منهم بطائل. ولما نفذ صبره مع هؤلاء الأشقياء الثلاثة، وجه إليهم بعض تلك السباب الممزوجة بالدعابة التي يظن الكبار أن من حقهم توجيهها إلى الصغار، فخرج الغلمان من صمتهم مطلقين ضحكة عالية، غضب لها درفي، وسمع الكولونيل الضجة، فخرج من غرفة صغيرة منخفضة تجاور مكان الألبان، وظهر على عتبة الباب في تجهم عسكري صارم، وهو ممسك بشفتيه غليونا من الفخار الأبيض الرخيص. ورفع عن عينيه حافة قبعته التي كساها الوسخ فرأى درفي، واخترق بركة السباخ مسرعا نحوه، وهو يصرخ في الغلمان آمرا: "صمت هناك في الصفوف!.." وفي الحال خفت أصواتهم ولزموا أماكنهم امتثالا لطلب الضابط العجوز.

وقال شابير للمحامي:

- هلا كتبت لي قبل مجيئك؟ سر إلى جوار الحظيرة. من هنا الطريق ممهد.

وكان المحامي حذرا في سيره، مترددا، يخشى أن تبتل نعلاه في المستنقع.

وقفز درفي من موضع إلى آخر إلى أن وصل أخيرا إلى عتبة الباب الذي خرج منه الكولونيل. وظهرت على شابير دلالات الاستياء لاضطراره إلى استقبال ضيفه في تلك الحجرة التي يسكنها. فلم يكن في الغرفة غير مقعد واحد، وكان الفراش بعض حزمات من القش ألقيت فوقها خرقتان أو ثلاث ظاهرة البلى من ذلك النسيج السميك الذي يستعمله بائعوا اللبن كغطاء لعرباتهم. أما أرض الغرفة فلم تكن إلا طينا مدهوكا، بينما انتشرت العفونة والأملاح والشقوق في عرض الحوائط، فشاعت فيها الرطوبة. واضطر الكولونيل إلى تحصين الحائط الذي ينام إلى جواره بحصير من الغاب. وكان المعطف القديم، الذي رأيناه من قبل على كتفي الرجل العجوز، معلقا بمسمار في أحد الأركان، ومن تحته زوج عتيق من الأحذية الطويلة ملقى على الأرض. ولم ير المحامي في الغرفة أثرا لأي نوع آخر من الثياب، وإنما لفت نظره فوق المنضدة المتداعية مجموعة نشرات الجيش الإمبراطوري الكبير، التي أعيد طبعها حديثا. فهي على ما يبدو القراءة الوحيدة التي يقبل عليها الكولونيل والتي يقضي فيها نهاره كله. وكان شابير بادي الهدوء والانشراح، وقد غيرت زيارته الأخيرة إلى درفي ملامح وجهه بعد أن أدخلت السكينة إلى قلبه وأشاعت فيه أنوار الأمل.

قدم الكولونيل إلى محاميه المقعد المتهالك وهو يقول له:

- أرجو ألا تضايقك رائحة غليوني.

- ولكن يا كولونيل، أنت تعيش في أسوء حال هنا.

قال المحامي هذه العبارة بدافع الجرأة في اللفظ التي هي من خصائص أبناء مهنته جميعا، والتي اكتسبوها على أثر خبرتهم الطويلة بمآسي الناس، وإطلاعهم على مكنون الأفئدة وأسرار النفوس.

وقال درفي في نفسه:

- لا شك أن هذا الرجل قد استغل مالي في إشباع النزوات الأساسية الثلاث التي يخضع لها كل عسكري: القمار والخمر والنساء!..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رد عليه الكولونيل:

- حقيقة، يا سيدي. نحن هنا لا نعيش في الترف والنعيم. إنها حياة المعسكر الجافة التي لا يخفف من قسوتها غير الصداقة والمودة.. ولكن..

وهنا وجه الرجل العجوز نظرة عميقة إلى رجل القانون ثم استمر يقول:

- .. ولكنني لم أوذ أحدا قط، ولم أصرف أحدا عن بابي، وأنا قرير العين مستريح الضمير.

ورأى المحامي أنه من غير اللائق السؤال عن أوجه استخدام المبالغ التي أقرضها الكولونيل، فاكتفى بالقول:

- لماذا لم تقدم إلى باريس لتعيش فيها؟ لا شك أنك تستطيع أن تحيا هناك بمثل النفقة التي تنفقها هنا، ولكن في راحة أوفر وظروف أحسن.

فرد الكولونيل قائلا:

- ولكن أهل هذا المكان أناس طيبون، آووني وأطعموني مجانا لوجه الله طوال عام كامل. فكيف أتركهم وقد تيسر لي بعض المال؟ هذا فضلا عن أن والد هؤلاء الغلمان الثلاثة مصري قديم.

- مصري؟ .. ما معنى هذا؟..

- نحن نطلق هذا الاسم على أفراد القوات المحاربة الذين عادوا من حملة مصر التي ساهمت فيها. إنها أخوة صادقة تربط ما بين قلوب جميع الذين عادوا من تلك الحملة. فضلا عن ذلك فقد كان فرنيو هناك واحدا من أفراد الفرقة التي أقودها، وقد تقاسمنا معا جرعة الماء في هجير الصحراء القاتلة. وعلى كل حال فانا لم أنته بعد من تعليم هؤلاء الأطفال القراءة.

- ألم يكن في استطاعته، مقابل ما تدفعه له من نقود، أن ييسر لك مقاما أسعد من هذا المقام؟

قال الكولونيل:

- لا بأس. إن أولاده ينامون مثلي على القش. وليس لزوجته ولا له نفسه فراش أحسن من فراشي هذا. إنهم قوم فقراء، فقراء جدا. وقد اشتروا هذا المكان الذي يفوق طاقتهم وعملوا في هذا العمل الذي تنوء به قدراتهم. ولكن، إذا قدر لي أن أسترد ثروتي.. فسوف.. لا داعي لهذا الكلام..

- يا كولونيل، سأتلقى غدا أو بعد غد أوراقك من هايلزبرج. إن المرأة التي أنقذتك من الموت

مازالت حية ترزق..

- لعن الله المال! .. وبئست حاجتي إليه!..

قالها الكولونيل في غضب وألقى بغليونه على الأرض.

ليس أثمن عند المدخن من غليونه الذي استعمله كثيرا من قبل. ولكن إلقاء شابير لغليونه على الأرض حدث نتيجة لإندفاعة طبيعية, واستجابة لثورة نبيلة قامت في نفسه, حتى ليغفر له المدخنون جميعا تلك الزلة الشنيعة. ولعل ملائكة السماء قد جمعت بأيديها في تلك اللحظة قطع الغليون المتناثرة.

نهض درفي قاصدا الخروج من الحجرة والذهاب للسير في الشمس بجوار البيت, وهو يقول:

- يا كولونيل, يبدو أن قضيتك شديدة التعقيد.

فرد عليه الكولونيل:

- بل إني أراها يسيرة لا تعقيد فيها. لقد ظنوني ميتا وهأنذا حي.. أعيدوا إلى زوجتي وثروتي, وأعطوني رتبة الجنرال فهي من حقي, فقد رقيت إلى رتبة الكولونيل في الحرس الإمبراطوري قبل موقعة أيلو بأيام..

وعاد درفي يقول:

- إن الأمور لا تعالج بمثل هذه البساطة في عالم القضاء. أنت الكونت شابير, لا اعتراض لي على ذلك. ولكن يجب إثبات هذا قضائيا في مواجهة أناس من مصلحتهم إنكار وجودك. وسوف يثير النقاش حول هذا الموضوع عشرة أو اثنى عشر دفعا من الدفوع التمهيدية, وستسير هذه الدفوع جميعا متلازمة حتى تصل إلى المحكمة العليا, فينشأ عدد مماثل من القضايا كثيرة التكاليف. وسوف يطول النزاع في هذه القضايا مهما بذلت في إنهائها من جهد وإسراع. ومن المؤكد أن خصومك سيطلبون إجراء تحقيق في دعوانا, ولن نستطيع الاعتراض على هذا الطلب ولا رفض إجراء التحقيق, وربما اقتضى الأمر اللجوء إلى إنابة قضائية في بروسيا. ولكن, حتى إذا افترضنا أحسن الفروض, وسلمنا بسرعة إقرار القضاء لوجودك واعترافه بأنك الكولونيل شابير فعلا, فلسنا ندري كيف يكون الحكم في جريمة تعدد الأزواج التي ارتكبتها الكونتيسة فيرو ببراءة وعن غير قصد. إن النقطة القانونية في قضيتك تقع خارج نطاق القانون الوضعي, ولن يستطيع القضاة أن يفصلوا فيه إلا بالاستناد إلى قانون الضمير, كما يفعل المحلفون في المسائل الدقيقة التي تثيرها المفارقات الاجتماعية في بعض القضايا الجنائية. أنت لم ترزق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بأولاد من زواجك، بينما أنجبت الكونت فيرو ولدين من زواجها، وقد يتجه القضاة إلى إبطال الزواج الذي به أضعف الروابط، في صالح الزواج الذي به أقواها، طالما توفر حسن النية لدى الزوجين. فهل مما يفيد مركزك الأدبي أن تصر، مع ما أنت فيه من سن ومن ظروف، على المطالبة باسترداد زوجة لم تعد تحبك؟ إنك بذلك سوف تثير ضدك زوجتك وزوجها وكلاهما ذو نفوذ وله القدرة على التأثير في هيئة المحكمة. ترى إذن أن عوامل الاستطالة والبطء قد تجمعت كلها في هذه القضية، وستقضي أياما مريرة في الحزن والأسى.

- وثروتي؟

- هل تعتقد أن لك ثروة كبيرة؟

- ألم يكن لي دخل قدره ثلاثون ألف جنيه؟

- يا عزيزي الكولونيل، لقد أوصيت في سنة 1799، قبل أن تقدم على الزواج، وصية تركت بها ربع أموالك للملاجئ..

- هذا صحيح.

- إذن!.. ألم يكن من الضروري، بعد أن اعتبرت في عداد الموتى، أن يعمل جرد لأموالك وأن تصفى تلك الأموال لتحصل الملاجئ على ربعها؟ ولم تتعفف زوجتك عن خداع المساكين من نزلاء الملاجئ، فأغفلت من الجرد ذكر النقود السائلة والمجوهرات، ولم تثبت فيه غير القليل من الأواني الفضية، وبخست ثمن الأثاثات إلى ما دون الثلث من قيمتها الحقيقية. ولعلها أرادت بذلك زيادة نصيبها من التركة، أو خفض مقدار الضرائب والرسوم عليها. ولما كان المقدرون الرسميون هم المسئولون عن تقديرهم، فقد أسفر الجرد الذي عمل على هذه الصورة عن مبلغ ستمائة ألف فرنك هو قيمة التركة، وكان نصيب زوجتك شرعا في ذلك النصف. وعرض كل شيء للبيع فاشترته زوجتك وفازت بالتركة كلها، وحصلت الملاجئ على الخمسة والسبعين ألف فرنك التي تخصها. ولما كانت خزينة الدولة ترثك قانونا، لأنك لم تخص زوجتك بشيء في وصيتك، فقد أصدر الإمبراطور مرسوما تنازل به إلى أرملتك عن الجزء الذي كان من نصيب المال العام. والآن؟ ما الذي تستحقه أنت ثلاثمائة ألف فرنك فقط تخصم منها المصاريف.

وشده الكولونيل لهذه البيانات القانونية الطويلة فقال:

وهل تسمي هذا عدلا؟

- بالتأكيد..

- يا له من عدل؟..

- هذا هو الواقع, يا صديقي الكولونيل. وهكذا ترى أن ما ظننته سهلا بسيطا ليس كذلك. بل ربما تمسكت مدام فيرو برغبتها في الاحتفاظ بالجزء الذي منحها إياه الإمبراطور.

- ولكنها لم تكن أرملة وقت صدور المرسوم. هذا المرسوم باطل..

- إني معك في ذلك. ولكن التقاضي طويل الحبال. أصغ إلي جيدا. في مثل ظروفنا هذه, وفي رأيي, يعتبر التصالح خير حل لهذا النزاع, وأسلم مخرج لك ولها معا. وسوف تحصل عن طريق الصلح على مبلغ يزيد كثيرا عن كل ما قد يؤول لك قانونا.

- معنى هذا أني أبيع زوجتي بالمال.

- بإيراد قدره أربعة وعشرون ألفا من الفرنكات, ومع ما أنت عليه من وضع الآن, سوف تعثر على نساء أليق بك من هذه الزوجة, وأقدر منها على إسعادك. إني قررت الذهاب اليوم إلى الكونتيسة فيرو لسبر أغوارها, والتعرف على استعدادها ونواياها. ولكني قبل الأقدام على هذا المسعى, أردت أن أخبرك به.

- لنذهب معا إليها..

واعترض المحامي قائلا:

- بالحالة التي أنت عليها الآن؟.. كلا, يا سيدي الكولونيل, كلا.. قد يؤدي بنا ذلك إلى ضياع قضيتك ضياعا كاملا.

- لماذا؟ أليست قضيتي عادلة, يمكن كسبها؟.

- إنها كذلك من جميع النواحي. ولكن, يا عزيزي الكولونيل شابير, أنت غافل عن نقطة هامة. أنا لست غنيا, ومازلت مدينا بأقساط أسددها من ثمن مكتبي. وإذا قررت المحكمة أن تمنحك معاشا مؤقتا, أي مبلغا من المال تتقاضاه خصما من ثروتك, فهي لن تقضي لك بذلك إلا بعد الاعتراف لك بصفاتك كاملة, وهي أنك الكونت شابير حامل وسام الفارس في جوقة الشرف.

- حقا, أنا حامل وسام الفارس في جوقة الشرف. كيف جاز لي أن أنسى ذلك وأن أغفل عنه؟

وبدت على الكولونيل علامات البراءة وهو يلقي بهذه الكلمات وعاد درفي يقول:

- إذن.. إلى أن يتحقق ذلك, ألسنا مضطرين إلى المرافعة والمدافعة, ودفع الرسوم اللازمة للقضايا والمحضرين, وتسديد المطلوبات عن الأحكام, إلى جانب نفقات الحياة نفسها. إن

مصاريف القضايا التحضيرية لن تقل بحال من الأحوال في مجموعها عن اثنى عشر أو خمسة عشر ألف فرنك. وأنا لا أملك هذا المبلغ خصوصا وأني مرهق بالفوائد الباهظة التي أدفعها لم أقرضني المال الذي اشتريت به مكتبي. وأنت، من أين لك الحصول عليه؟

انحدرت عبرات غليظة من عيني الرجل العجوز الذابلتين، وقد ركبه اليأس عند سماعه هذه الصعاب وهذه العقبات الهائلة.. ها هو عالم القضاء يتحالف مع المجتمع عليه. إنهما يضغطان معا على صدره، ويثيران في قلبه كابوسا قاتلا.

وبعد برهة صمت صاح الكولونيل:

- سأذهب إلى قاعدة النصب القائم وسط ميدان فاندوم، وهناك سأصرخ في الناس قائلا:

- أنا الكولونيل شابير الذي بدد شمل صفوف الروس في موقعة أيلو.. وسيعترف بي الصخر والحديد إن لم يعترف بي الناس.

- وسيلقون بك بلا شك في مستشفى المجاذيب.

وإذ سمع الرجل هذه العبارة هبط حماسه، وتلاشت ثورته، وعاد يقول متوسلا:

- ألا يمكن أن يكون لي شيء من الحظ لدى وزارة الحرب؟

فقال درفي:

- مكاتب الموظفين؟ إذا أردت أن تتوجه إليها فلا تذهب إلا وبيدك حكم قانوني سليم يقرر إلغاء شهادة وفاتك. ولا تنس أن هم الحكومة الآن هو التمكن من القضاء بلا رحمة على كل من انتسب في يوم من الأيام إلى الإمبراطورية.

ظل الكولونيل لحظة مشدوها لا يأتي حراكا، ينظر بعينين لا تريان شيئا، متهالكا في يأس لا قرار له. لقد ركز آماله كلها في وقت من الأوقات على القضاء العسكري، فهو قضاء صريح سريع يفصل في المنازعات بغير لف ولا دوران، وتكاد أحكامه أن تكون دائما جيدة. فضلا عن أنه لم يعرف قط محاكم أخرى في حياته غيره. لقد أحس الرجل المسكين بضربة قاتلة توجه فيه إلى تلك القدرة التي تميز بها الإنسان والتي يسمونها الإرادة، وذلك بعد أن أدرك مقدار العقبات والصعاب التي تعترض طريقه، ومقدار النقود اللازمة له للوصول إلى حقوقه وإثبات وجوده. وتيقن من استحالة الحياة عليه وهو غارق في عالم التقاضي والمحاكم، فرأى أن من الخير له ألف مرة ومن الأيسر أن يبقى كما هو فقيرا شحاذا، وأن يخدم كفارس في بعض الفرق إذا رغب أحد فيه. لقد ناله من جراء آلامه المادية والمعنوية عور في بعض أجزاء جسمه، أصاب منه

أعضاء لها أهميتها وخطرها, فهو قاب قوسين أو أدنى من ذلك المرض الذي سكت الطب عن تسميته, والذي يسعى مركزه متنقلا مع الجهاز العصبي, أكثر أجهزة الجسم تعرضا للإصابة. إنه مرض الإكتئاب النكدي أو الحزن الناتج عن توالي المصائب. وأيا كانت درجة الإصابة بهذا الداء الخفي, الذي لا ينكر أحد حقيقة وجوده, فهو ليس مستعصي العلاج, ويكفي للعلاج منه توفيق المريض به في أمر من أموره, وتحقق النجاح له فيه. يكفي أن يهز جهازه العصبي هزا عنيفا عن طريق عائق جديد يزلل, أو حادث غير متوقع ينتهي بسلام, فينحل كيان الأوهام المتراكمة في ذهنه, وتتهاوى فيه العقد والاندفاعات المبهمة التي لا يلاحظها علماء النفس عادة لدى الأشخاص الذين حصرتهم الأحزان.

ولاحظ درفي علامات الانهيار واليأس على عميله فعاد يقول له:

ـ تشجع يا صديقي. إن خاتمة هذه الدعوى ستكون في مصلحتك بالتأكيد. كل ما هنالك أني أطلب منك أن تمنحني ثقتك كاملة, وأن تقبل بغير جدال النتائج التي سوف أرى أن فيها الخير كله لك. فهل في استطاعتك ذلك؟

فقال شابير:

ـ افعل ما بدا لك...

ـ هذا حسن. ولكن أراك تستسلم إليّ كمن يستسلم للجلاد الذي يسوقه إلى الموت؟

ـ ألست مقضيا عليّ أن أبقى هذه الفترة بغير وجود وبغير اسم؟.. هل تظن ذلك يسيرا على نفسي؟

فرد عليه المحامي قائلا:

ـ إني لا أرى رأيك هذا. سنسعى وديا للحصول على حكم بإلغاء وثيقة وفاتك وعقد زواجك. وبذلك تسترد حقوقك. بل قد نحصل, بفضل نفوذ الكونت فيرو, على أمر بإدراج اسمك في كشوف ضباط الجيش القدامى برتبة جنرال. وسنحصل بغير شك على المعاش المناسب لك.

عندما سمع شابير هذا الكلام قال:

ـ أنت وما تريد. إني واثق بك كل الثقة.

وعاد درفي يقول:

ـ سأبعث إليك بتوكيل لتوقع عليه. وداعا يا كولونيل. تذرع بالشجاعة والصبر. وإذا احتجت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى نقود، فلك أن تعتمد علي في ذلك.

وشد شابير في حرارة على يد المحامي، وظل واقفا مسندا ظهره إلى الحائط مكتفيا في تشييعه بالنظر فقط. وكان، ككل من يجهل الشئون القضائية، يتوجس خيفة من هذا الكفاح الذي لا يدري عن نهايته شيئا.

*

كان هناك طوال هذا الحديث رجل في الطريق، واقف إلى جوار الباب، وقد أطل برأسه مرات من خلف الجدار، وكأنه ينتظر خروج درفي. وإذ خرج المحامي اقترب منه الرجل يستوقفه. وكان رجلا عجوزا يكتسي سترة زرقاء فوقها رداء أبيض مما يلبسه العمال، وقد غطى رأسه بقبعة صغيرة من الجلد. وكان وجهه الأسمر كثير الحفر والتجاعيد، تعلوه تلك الحمرة التي تنشأ عن طول العمل في الهواء الطلق. وقال الرجل لدرفي وهو يمس ذراعه:

ـ عفوا يا سيدي، إذا سمحت لنفسي بالتحدث إليك، ولكني أيقنت حينما رأيتك أنك بلا شك صديق لصديقنا الجنرال.

فقال له المحامي:

ـ حسن.. ما الذي يعنيك من أمره؟ من أنت ومن تكون؟

ـ أنا لويس فرنيو. وأريد أن أقول لك كلمتين.

ـ أنت إذن الذي تستضيف الكونت شابير على هذه الصورة الحقيرة؟..

ـ أرجو معذرة يا سيدي، لقد أفردت له أجمل غرفة عندي. ولو أن لي غرفة أخرى لتركت له غرفتي، ولرضيت أنا وزوجتي بالنوم في الحظيرة. يا له من رجل نبيل قاسى ألوان العذاب جميعها!.. إنه يعلم أولادي القراءة!.. هذا الجنرال.. هذا المصري.. أول ضابط خدمت تحت قيادته.. وقاسمته الحياة طويلا.. كلا، إنه أكثرنا متعة من حيث السكنى. لقد أعطيته خير نصيب مما أمتلك، وما أمتلك جد قليل لسوء حظي.. بعضها من الخبز واللبن والبيض.. الحياة قاسية ويجب أن نحياها.. ولكني أقدم له ذلك بنفس راضية وقلب مستريح. ولكنه أساء إلينا.

ـ هو أساء إليكم؟

ـ نعم، يا سيدي. أساء إلينا إساءة كبيرة. لقد اشتريت هذا المكان وهو فوق طاقتي وأنا أنوء بتكاليفه. وقد لاحظ هو ذلك وحزن له كثيرا، وأخذ يعنى بجوادي ويمشطه، فقلت له: "لا، يا

سيدي الجنرال". فقال لي: "دعك من هذا. لا أريد أن أبقى عاطلا بلا عمل، إن تمشيط الخيل وخدمتها مهنتي من زمن بعيد".

لقد وضعت اسمي على عدة أوراق هي ثمن حظيرتي هذه.. وقعت عليها لصالح من يدعى جرادوس. هل تعرفه يا سيدي؟

يا عزيزي، لا وقت لدي أضيعه في سماع ما تقول. قل فقط كيف أساء الكولونيل إليك؟

ـ أساء إلينا يا سيدي. نعم أساء إلينا، حتى لقد بكت زوجتي وحزنت. لقد علم من الجيران أننا لا نملك صلدا واحد من قيمة أول ورقة علينا. ولم يقل الرجل الطيب العجوز شيئا، وإنما جمع كل ما أعطيته أنت من مال وانتظر قدوم المطالب بقيمة الورقة ودفع له ما أراد. من غير أن يذكر لنا ذلك. وقد أساء إلينا بهذا. وزوجتي وأنا نعلم كل العلم بغير طباق، هذا الرجل الطيب، وأنه كف عن التدخين. أما الآن فأنا اشتري له الطباق كل صباح. إني أود لو استطعت أن أبيع نفسي لأحصل له على الطباق. لا. لا. لقد أساء إلينا. لذلك أريد أن أعرض عليك يا سيدي أن تقرضنا بعض المال. لقد قال لنا الجنرال أنك رجل كريم طيب القلب.. خمسمائة فرنك، أو ما يقرب من ذلك، بضمان ملكنا هذا. حتى نستطيع أن نعد له بعض الملابس وأن نؤثث له غرفته هذه. لقد ظن أنه يوفي لنا بدين عليه، أليس كذلك؟ ولكنه في الحقيقة جعلنا مدينين له.. مدينين له بالكثير.. فأساء إلينا.. ما كان يجدر به أن يهيننا هكذا.. ولا أن يسيء إلينا.. والصداقة التي بيننا؟ أليست لها قيمة؟ أقسم لك بشرفي يا سيدي أنني سوف أفضل الموت على ألا أرد لك هذا المبلغ..

ونظر درفي إلى الرجل برهة، ثم خطا خطوات إلى الخلف ليعيد النظر إلى البيت وفنائه، وإلى السباخ والحظيرة والأرانب والأطفال ثم قال:

ـ إن من الخير والله، في رأيي، ألا يكون المرء مالكا لمثل ما تملك. لا عليك! ستحصل على الخمسمائة فرنك التي تريدها، بل وأكثر منها إذا شئت. لا تظن أنني أنا الذي سأعطيها لك.. كلا .. إن الكولونيل غني، وسيكون في استطاعته أن يساعدك. وليس من حقي ولا في نيتي أن أحرمه هذه السعادة.

ـ هل يتم ذلك قريبا؟

ـ نعم.

ـ يا الهي!. كم ستسر زوجتي لهذا النبأ!

وظهرت السعادة على وجه العلاف الأسمر.

وعندما هم درفي بركوب عربته قال يخاطب نفسه:

- والآن لنذهب إلى خصمنا. يجب ألا نكشف له شيئا من خطتنا، وأن نحاول التعرف على خطته. لنربح الجولة من الضربة الأولى. هل من الخير لنا أن نخيفها؟ إنها امرأة. فما الذي يخيف النساء أكثر من غيره؟ إن النساء لا يخفن إلا من..

وراح يدرس وضع الكونتيسة وظروفها. وانهمك في هذا النوع من التفكير العميق الذي ينتاب فطاحل السياسيين، وهم يرسمون خططهم، ويحاولون الكشف عن خفايا الأعداء وأسرارهم أو ليس المحامون من بعض الوجوه نوعا من رجال السياسة مكلفين بشئون الأفراد الخاصة؟ ولعل نظرة نلقيها هنا على وضع الكونت فيرو وزوجته تعيننا على فهم الترتيبات التي أعدها المحامي درفي، وإدراك الأسلوب الماكر الذي عول على الأخذ به.

كان الكونت فيرو سليل أحد مستشاري برلمان باريس القدامى، هاجر إلى الخارج في عهد حكومة الإرهاب، فأنقذ بذلك عنقه وأضاع ثروته كلها. ثم عاد إلى البلاد في عهد حكومة القنصلية، وظل على ولائه للملك لويس الثامن عشر الذي عاش أبواه بين أفراد حاشيته قبل الثورة. وهكذا كان الكونت واحدا من سكان حي سان جرمان الذين قاوموا إغراءات نابليون، وفضلوا الكرامة على المال. واشتهر الرجل في عهد نابليون بالكفاءة النادرة والاستقامة الدقيقة، الأمر الذي اجتذب إليه انتباه الإمبراطور، فحاول أن يضمه إليه. وكثيرا ما كان نابليون يسعد بانتصاراته على رجال الأرستقراطية القديمة قدر سعادته بالمواقع الحربية التي يخرج منها ظافرا. وبذلت الوعود للكونت فيرو، وجاءته التلميحات بإمكان استعادة لقبه واسترداد أملاكه التي لم يتم بيعها بعد. بل لوح له على البعد بأحد المناصب الوزارية، أو بأحد مقاعد مجلس الشيوخ. ولكن تلك المحاولات كلها من جانب الإمبراطور باءت بالفشل. وكان السيد فيرو عند إذاعة نبأ وفاة الكونت شابير في السادسة والعشرين من عمره، شابا لا ثروة له، جميل المظهر، ناجحا في المجتمع، معدودا من ألمع الشخصيات التي تقطن حي سان جرمان الأرستقراطي العتيد. أما أرملة الكونت شابير فقد أحسنت إدارة الأموال التي انتقلت إليها بالميراث من زوجها، حتى أصبحت بعد انقضاء ثمانية عشر شهرا فقط على ترملها صاحبة دخل يقدر بحوالي أربعين ألف جنيه. ولم يقابل زواجها من الكونت الشاب بحماس زائد بين أفراد مجتمع سان جرمان. ولكن نابليون انشرح صدره لهذا الزواج الذي يحقق إحدى رغباته في مزج القديم المعاند بالحديث الثوري. فأسرع يرد إلى مدام شابير جانب التركة الذي كان من حق الدولة. وفشل الإمبراطور أيضا فيما كان يرمي إليه. إذ أن الكونتيسة لم تجد فقط من زوجها الشاب العشيق الذي كانت تصبو إليه، وإنما أغراها أيضا هذا الزواج على الولوج إلى داخل ذلك المجتمع المغلق

CamScanner

المتعالي، الذي كان على الرغم من عزلته وتباعده يسيطر من بعيد على البلاط الإمبراطوري كله، ويحكم تصرفاته وتقاليده. لقد وجدت الكونتيسة في هذا الزواج كل ما يحقق أطماعها وشهواتها معا، وكل ما يمهد لها الطريق لتصبح إحدى سيدات المجتمع. ولما تحقق أرستقراطيو سان جرمان من أن زواج الكونت الشاب لم يكن خيانة لمبادئهم ولا تنكرا لآرائهم، أسرعوا يفتحون أبواب صالوناتهم أمام زوجته.. وانهار الحكم الإمبراطوري وعاد مكانه الحكم الملكي القديم. ولم يسرع الكونت فيرو الخطو في طريق السياسة، فقد كان على علم بعدم ثبات مركز لويس الثامن عشر، وكان من بين أولئك الواعين الذين فضلوا الانتظار إلى أن يغلق باب الثورات تماما. وكانت هذه السياسة الحريصة عقيدة الكثيرين في ذلك الوقت.

على أن الأمر الملكي الذي سبقت الإشارة إليه في مستهل هذه القصة أعاد إلى الكونت فيرو مساحتين من الغابات وقطعة من الأرض، بعد أن تضاعفت هذه الأملاك كثيرا في فترة الحراسة عليها. وكان الكونت في ذلك الوقت يشغل وظيفة المستشار في مجلس الدولة مع درجة المدير العام، إلا أنه لم يكن يرى في ذلك المنصب إلا بداية الطريق السياسي الذي يريد سلوكه. وقد حمله طموحه ودفعته مطامعه إلى أن يتخذ لنفسه كاتما لأسراره يقوم على خدمته ورعاية مصالحه. فاختار لذلك محاميا قديما مفلسا، يدعى دلبيك. وكان دلبيك هذا خبيثا ماهرا ملما بطرق المشاكسة وبأسرار الحيل والمنازعات. ولم يلبث أن تولى شئون مخدومه الخاصة كلها، وأخلص له الإخلاص كله، لا لأمانة فيه، ولا لصدق نواياه؛ وإنما لحاجة في نفسه وتدبير يسعى إليه. فقد كان يطمع في منصب يناله بفضل نفوذ الرجل الذي ترك له إدارة أمواله كلها. وقد استطاع بفضل تفانيه في عمله، وحرصه على مصالح الكونت، أن يبدد الشائعات التي ترددت حوله، وأن يلبسه ثوب المظلوم المفترى عليه.

وقد عرفت الكونتيسة بالحدس الذي تتميز به النساء عادة، وبالإحساس الذي هو من طبيعتهن، ما يرمي إليه وكيل أعمال زوجها. فراحت، وهي ترقبه عن قرب، تستغل منه مهارته وخبرته، حتى توصلت عن طريقه إلى مضاعفة ثروتها الخاصة. فقد نجحت في إيهام دلبيك أنها تسيطر تماما على إرادة زوجها. وأن في استطاعتها، إذا ما أخلص في خدمتها، أن تحصل له على منصب رئيس لإحدى المحاكم الابتدائية في بلدة من كبريات بلاد فرنسا. وقد أحدث هذا الوعد في قلب الرجل الطموح ما أرادته الكونتيسة منه، وبات يحلم بزواج فيه الثراء، يتلوه بعد قليل ذيوع الصيت في عالم السياسة والوصول إلى مقعد النيابة. ولم يلبث دلبيك بذلك أن أصبح شيطان الكونتيسة الرجيم. فلم يترك فرصة واحدة من الفرص العديدة التي أتاحتها البورصة وجاءت بها تقلبات الأسعار الهائلة في باريس خلال السنوات الثلاث الأولى والتي تلت عودة النظام الملكي، إلا وانتهزها لتفيد منها مدام فيرو. وقد توصل بذلك إلى مضاعفة ثروتها مرات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وساعدته هي في هذا الأمر, ولم تكن تتورع عن سلوك كل الطرق لزيادة أموالها. فقد كان من دأبها أن تخصص لنفقات المنزل ما يحصل عليه الكونت من مرتبات وتحتفظ بإيرادها الخاص تكدسه وتنميه بشتى الطرق. وكان دلبيك يساعد على ذلك من غير أن يحاول معرفة أسباب هذا البخل والتقتير.. فأمثال هذا الرجل لا يهمهم من الأسرار إلا ما يتعلق بأطماعهم ومصالحهم الذاتية. وكان يكتفي من الأمر بأن يعلله بما اتصفت به الباريسيات دائما من جشع مفرط, وحب لا حد له للذهب والمال. وكان يظن أحيانا أن حرص الكونتيسة, وجريها وراء الثروة الطائلة, لا قصد منهما إلا مساندة أطماع زوجها, واستجابة إلى نوازع الحب الذي تكنه له.

أما الكونتيسة فقد كتمت أسرارها في صدرها, وحرصت على ألا تبوح بمكنون نواياها لأحد. وجعلت من هذا الأمر مسألة حياة أو موت بالنسبة لها, وفي ذلك تكمن العقدة من هذه القصة.

وفي أوائل سنة 1818 بدأ النظام الملكي العائد في فرنسا وكأنه وطيد الأركان ثابت البنيان, وظن ذوو العقول المستنيرة أن البلاد مقبلة على عهد جديد من الرخاء السابغ والثراء العميم. وعندئذ غير المجتمع الباريسي من نظرته للحكم, وأقبل على الملك العائد يحيط به ويتقرب إليه. واكتشفت الكونتيسة فيرو فجأة أنها أقدمت على زواج فيه الحب والثراء والطموح. ولما كانت ما تزال شابة رائعة الجمال, فقد ألقت بنفسها في حياة الترف وعاشت في أجواء البلاط الملكي. وسرعان ما أصبحت, بفضل ثروتها الخاصة, وبفضل مركز زوجها, من سيدات المجتمع الأرستقراطي, تساهم فيه وتشارك في ترفه. ألم يكن زوجها من أقدر رجال الحزب الملكي؟ ألم يكن صديق الملك؟ ألم يكن يتوقع له الجميع الوصول قريبا إلى كرسي الوزارة؟ ومع ذلك أصيبت الكونتيسة وهي في أوج مجدها وفي قمة عظمتها وتألقها بداء نفسي عضال, أشد من السرطان في ضراوته. فهناك من المشاعر والأحاسيس ما تكشف عنه المرأة بسليقتها مهما بذل الرجل من جهد ومداراة لإخفائه. فبعد عودة الملك الأولى قامت في قلب الكونت فيرو بعض الهواجس حول زواجه وندم على اقترانه من أرملة الكولونيل شابير التي لم تأت له بالنسب العريض الذي كان يطمع فيه. وجد نفسه وحيدا بلا سند ولا معين يأخذ بيده في الطريق الوعر الذي اعتزم السير فيه. طريق كله عقبات, يحف به الأعداء من كل جانب. ولعله أدرك إلى جانب ذلك, بعد أن خبر زوجته ودرس طباعها, إنها تفتقر إلى ذلك النوع من التربية والإعداد الذي يستطيع أن يعينه على تحقيق نواياه. وقد أفلتت من الزوج ملاحظة عابرة حول زواج الوزير تاليران, وكانت فيها الكفاية لتنبيه الزوجة إلى ما يجول في خاطره, فأدركت أنها, لو قدر لها أن تعيد زواجها مرة ثانية, لما أصبحت في يوم من الأيام مدام فيرو.. وهل من زوجة تسكت على وجود مثل هذا الشعور في قلب زوجها؟. ألا توجد فيه إهانة لها ومسا لكرامتها وخطرا يهدد حياتها الزوجية؟ ومما زاد من خوف الكونتيسة ومن توجسها, خشيتها من عودة زوجها الأول.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد علمت أنه حي يرزق، وتنكرت له، ورفضت وساطاته إليها. ولما أن انقطعت عنها أخباره لفترة من الزمن بعد ذلك، ظنته قد قتل في موقعة واترلو، مع صديقه بوتان، وغيرهما ممن ظلوا على الوفاء لنابليون.

على أن الكونتيسة وطدت العزم على جعل زواجها من الكونت فيرو رابطة لا انفصام لها، رابطة أساسها الذهب والمال، ولحمتها وسداها المصلحة المادية. أرادت أن تكون من الثراء والغنى بحيث يتعذر فك عروة زواجها الثاني، إذا ما حدث وعاد زوجها الأول إلى عالم الوجود. وها قد عاد الكونت شابير، ولكنها لا تدري السبب الذي من أجله لم تبدأ بعد المعركة العنيفة التي خشيتها وأكثرت من الاستعداد لمواجهتها.. لعل الأوجاع والأمراض قد أنقذتها منه إلى الأبد! بل لعله الجنون أو شبه الجنون! وفي هذه الحالة سوف يأتيها الخلاص من بين جدران مستشفى المجاذيب.

وقد حرصت الكونتيسة على عدم اشتراك دلبيك أو البوليس في هواجسها وأسرارها.. وإلا جعلت منهما على نفسها سيدا، أو عجلت بوقوع الكارثة التي تخشاها. وهناك في باريس كثيرات من النساء مثل مدام فيرو، يعشن وفي صدورهن مثل هذا الوحش الضاري المجهول، ويسرن على حافة الهاوية. وتراهن مع ذلك قادرات على ستر ما بهن من داء، وعلى مداومة الضحك واللهو والحياة.

Telegram:@mbooks90

خرج درفي من تأملاته العميقة في اللحظة التي توقفت به العربة في شارع فارين عند باب قصر فيرو، وقال لنفسه:

- هناك أمر غريب في حالة الكونت فيرو. كيف به، وهو على ما هو عليه من الثراء، وبرغم ما بينه وبين الملك من صداقة لم يصل بعد إلى مقاعد مجلس الشيوخ؟ ربما كان الملك حقيقة، كما علمت من مدام دي جرانليو، حريصا كل الحرص على الاحتفاظ لمقاعد الشيوخ بهيبتها، فهو لا يسرف في منحها، وابن أحد مستشاري البرلمان ليس على كل حال ممن يولدون ولهم حق الجلوس في مقاعد الشيوخ. فإذا طمع الكونت فيرو في الوصول إلى هذه المقاعد فلن يكون له ذلك إلا بطريق الحيلة والواسطة. فإذا ما ألغى زواجه ألا يصبح في استطاعته تحقيق هدفه هذا بمصاهرة واحد من أعضاء المجلس الأعلى ممن تقدمت بهم السن، ولم يرزقوا غير البنات؟ وسوف يرضى الملك عن ذلك كل الرضا ويسر له كل السرور.

واختمرت هذه الفكرة في ذهن المحامي الشاب، فقال يخاطب نفسه وهو يرقى سلم الشرفة المؤدية إلى القصر:

- لا شك أن هذه حيلة رائعة يمكن استخدامها لإدخال الرعب على قلب الكونتيسة.

وكان درفي بذلك قد مس بإصبعه من غير أن يدري الجرح الدامي في قلب الكونتيسة، ووصل إلى مكمن الداء منها.

استقبلته مدام فيرو في غرفة طعامها الشتوية الأنيقة، وهي تتناول غداءها، وتداعب قردا صغيرا ربط بسلسلة إلى عمود انتشرت على جوانبه العوارض الحديدية. وكانت تتدثر برداء منزلي رائع وقد عقصت شعرها في إهمال، فتناثرت خصلاته من عصابة رأسها، وبدت جميلة، ضاحكة، مشرقة. وكانت المائدة أمامها تعج بالآنية الفضية والبللورية، بينما تناثرت في أرجاء الغرفة زهور عجيبة الأشكال والألوان في أوعية من الخزف الثمين.

وحينما رأى المحامي زوجة الكونت شابير تنعم بهذا البذخ، وتتمتع بثروته على هذا الوجه، وتحتل من المجتمع مكانا رفيعا، بينما يعيش المسكين عالة على علاف فقير، يشارك المواشي حظائرها قال في نفسه:

- إن في ذلك لعظمة كبرى، هي أن المرأة الحسناء لن تقبل أبدا الاعتراف بزوجها، بل ولا بعشيقها، في شخص رجل يتسربل بالمعطف العتيق، ويكسو رأسه بشعر مستعار كأنه القش الجاف وينتعل حذاء ينفذ منه الماء.

وارتسمت على شفتيه ابتسامة خبيثة لاذعة تعبر عما يجول في ذهنه من أفكار تخالط الفلسفة فيها جميع ألوان الذراية، وهو الرجل القادر على فهم الأمور بعمق، والقادر على اختراق حجب الكذب والرياء، التي تخفي معظم الأسر الباريسية خلفها حياتها ومآسيها.

قالت الكونتيسة من غير أن تكف عن تقديم القهوة لقردها الصغير:

- صباح الخير مسيو درفي.

واستاء المحامي من هذا الأسلوب الفج الذي استقبلته به الكونتيسة، فبادرها بقوله من غير أن يرد لها التحية:

- سيدتي، جئت لأحدثك في أمر هام.

- يحزنني كل الحزن أن يكون الكونت غائبا.

- أما أنا فيسعدني ذلك يا سيدتي. فقد يكون من المحزن حقا أن يسمع الكونت ما سوف يدور من حديث بيننا. وقد علمت من دلبيك أنك تفضلين دائما مباشرة شئونك بنفسك، من غير أن

تقلقي بها سيدي الكونت.

- إذن سأدعو لك دلبيك.

قال درفي:

- قد لا يفيدك دلبيك شيئا، على الرغم مما أوتي من مهارة وحذق. أصغي إلي يا سيدتي، كلمة واحدة تسمعينها مني سوف تجعلك جادة.. الكونت شابير موجود.

انطلقت من فمها ضحكة عالية وهي تقول:

هل تريد من ذكرك لمثل هذه السخافات أن تجعلني جادة؟

ولكن الكونتيسة سرعان ما ألجمت أمام النظرة الصافية المطمئنة التي وجهها إليها درفي، وكأنه يخترقها بعينيه ويقرأ ما في قرارة نفسها. وبعد برهة قال لها في صوت رزين هادئ:

- سيدتي، أنت تجهلين مدى الأخطار التي تهددك. لن أحدثك طويلا عن صحة الأوراق التي لا مراء فيها، ولا عن جدية الأدلة التي تثبت وجود الكونت شابير. وأنا لست الرجل الذي يرضى لنفسه الاضطلاع بقضية خاسرة. وهذا معلوم لك عني تماما.. وإذا اعترضت على ما ننتويه من الطعن في بطلان شهادة الوفاة، فسوف تخسرين هذه القضية الأولى حتما. وإذا تم الفصل لصالحنا في هذه النقطة الجوهرية كسبنا كل القضايا الأخرى بعدها.

- ما الذي تريد أن تحدثني عنه بالضبط؟

- لست أريد أن أحدثك عن الكولونيل شابير ولا عن نفسك. كذلك لن أحدثك عن المذكرات التي قد يحررها الدفاع في القضية، ويملؤها بالدعابة اللاذعة، بعد أن توفرت له الوقائع الغريبة التي صاحبتها. كما أنني لن أشير إلى نقطة الضعف المتمثلة في الرسائل التي وصلتك من زوجك الأول، قبل إقدامك على عقد قرانك من زوجك الثاني.

ثارت المرأة وقالت في غضب:

- هذا كذب. لم تصلني أية رسالة من الكونت شابير. وإذا كان هناك من يزعم أنه الكولونيل شابير، فلا يمكن إلا أن يكون دعيا وأفاقا، أو سجينا عائدا من الليمان، من أمثال كونيار وغيره. من يدري أني ارتعد لمجرد التفكير في هذا الأمر. هل يمكن أن يبعث الكولونيل حيا، يا سيدي؟ لقد عزاني بونابرت في موته بواسطة واحد من حاشيته، ومازلت حتى اليوم أتلقى معاشي عنه بصفتي أرملته، ثلاثة آلاف فرنك قررتها لي الدولة. كم كنت على صواب حينما طردت عن بابي

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

كل أولئك الذين جاءوا يدعون أنهم الكولونيل شابير وسيأتي منهم كثيرون وسأطردهم أيضا.

رد عليها المحامي في برود، وهو يتلذذ بإثارة كوامن الغضب فيها على أمل أن يحصل منها، وهي في ثورتها على بعض خفاياها وهي عادة من عادات المحامين الذين ألفوا الاحتفاظ بهدوئهم بينما خصومهم أو عملاؤهم يتميزون غضبا وانفعالا:

- لحسن الحظ يا سيدتي إننا على انفراد الآن، وليس معنا ثالث. وفي استطاعتنا أن نكذب ما شاء لنا الكذب.

ثم قال في نفسه، وهو يدبر في ذهنه فخا للمرأة، لعلها تقع فيه، فينكشف منها جانب الضعف، وتكف عن عنادها:

- إذن فليواجه كل منا الآخر الآن..

وعاد يقول بصوت مرتفع:

- لدينا الدليل يا سيدتي، على وصول الرسالة الأولى إليك لقد كانت تحوي مبلغا من المال.

- أما عن المال، فهذا كذب.. لم يكن بها أي مال..

وهنا أسرع درفي يقول وهو يبتسم:

- إذن، وصلتك هذه الرسالة الأولى، ها أنت قد وقعت في أول فخ ينصبه لك أحد المحامين، ومع ذلك تعتقدين أن في استطاعتك الصمود أمام العدالة!..

واحمر وجه الكونتيسة، ثم شحب، وأمسكت رأسها بيديها. ولم تلبث أن نفضت عنها الخجل، وعادت تقول في جرأة هي من طبيعة هذا النوع من النساء:

- مادمت المحامي عن شابير المزعوم هذا، فأرجو منك أن ...

قاطعها درفي قائلا:

- سيدتي، مازلت حتى هذه اللحظة محاميك ومحامي الكولونيل. هل تظنين أني أرضى بفقد عميل ثمين مثلك؟ ولكنك لا تصغين إليّ.

فعادت تقول مستظرفة:

- تكلم يا سيدي.

- إن الثروة التي تنعمين بها، جاءتك عن الكونت شابير، وقد تنكرت له ورفضت مقابلته. أنت

في بحبوحة من العيش، وهو يتضور جوعا، وقد تخليت عنه.. سيدتي، إن بلاغة المحامين تأتي من بلاغة الوقائع نفسها، وسهولة دفاعهم ترجع إلى سهولة القضايا التي بين أيديهم. وفي هذه القضية من الظروف ما قد يضعك في الموقف الحرج، ويثير الرأي العام ضدك..

وضايق الكونتيسة هذا الكلام، وقد رأت درفي يضيق عليها الخناق، ويقلبها فوق الجمر.. فقالت في اطمئنان مفتعل:

- ولكن يا سيدي، إذا سلمنا جدلا بأن هذا السيد شابير الذي تتحدث عنه موجود فعلا، فإن المحاكم لن تبطل زواجي الثاني، بل تبقي عليه من أجل أولادي. وقد يقتصر الأمر في هذه الحالة على أن أرد لمسيو شابير هذا، مبلغ مائتين وخمسة عشر ألفا من الفرنكات، هذا كل ما في الأمر.

- ما من أحد يعرف يا سيدتي كيف يقدر القضاء الجانب العاطفي من المسألة. فإذا كنا من جهة أمام أم وأطفالها، فنحن من جهة أخرى أمام رجل هدته الأحزان والمصائب، وفقد قوته وشبابه بسببك أنت وبسبب تمنعك عنه. أين يستطيع وهو على ما هو عليه الآن أن يجد الزوجة التي ترضى به؟ ثم هل في قدرة القضاة أن يتجاهلوا القانون أو يخرجوا عن أحكامه؟ إن زواجك من الكولونيل شابير هو الأقوى والأولى بالرعاية؛ لأن القانون في صفه. وإذا كثر اللغط حول هذا الموضوع، وتناولته الألسن: وظهرت بالمظهر الذي لا أرضاه لك، فقد تصادفين خصما لم يكن في الحسبان.. هنا يا سيدتي، يكمن الخطر الذي أحاول إنقاذك منه.

أسرعت الكونتيسة في دهشة تقول:

خصم جديد؟ من هو؟

- الكونت فيرو يا سيدتي.

- إن الكونت فيرو يكن لي أحر العواطف، كما يحتفظ لأم أولاده بأقدس آيات الاحترام..

رد عليها درفي مقاطعا:

- لا تتحدثي عن مثل هذه السخافات الصبيانية أمام محام اعتاد سبر أغوار القلوب وقراءة ما بين طياتها. إن الكونت فيرو لا يريد في الوقت الحاضر أن ينهي ما بينه وبينك من رباط الزوجية وهو لا يفكر في ذلك، وأنا على يقين أنه هائم بك، عابد لك، ولكن لو جاء من يهمس له في أذنه أن زواجه هذا قابل للإلغاء، وأن زوجته ستقف موقف الاتهام أمام محكمة الرأي العام..

- سيدافع عني يا سيدي.

- كلا يا سيدتي.

- وأي سبب يدعوه إلى التخلي عني, يا سيدي؟..

- سبب بسيط. هو الزواج من بنت وحيدة لأحد أعضاء مجلس الشيوخ, فتنتقل إليه العضوية بقرار يصدره الملك..

وشحب وجه الكونتيسة, فقال درفي في نفسه:

- ها نحن قد وصلنا إلى المرام.. وها أنت في قبضتي الآن .. كسبنا قضية الكولونيل البائس المسكين..

ثم رفع صوته قائلا:

- على أن مسيو فيرو لن يندم كثيرا يا سيدتي على ما سوف يقدم عليه. فهذا رجل تسربل بالمجد, حائز على رتبة الجنرال, كونت, فارس في جوقة الشرف, له مكانته وله مقامه, وقد جاء يطلب منه أن يرد إليه زوجته.. ماذا..

صاحت الكونتيسة في يأس:

- كفى, كفى, يا سيدي. لن اتخذ لي في هذا الشأن محاميا غيرك.. بماذا تنصحني؟

فأسرع درفي يقول:

- بالصلح!..

صمتت الكونتيسة لحظة, ثم عادت تسأل:

أمازال يحبني؟

ما أظن الأمر إلا كذلك.

عندما سمعت المرأة هذه الكلمات, رفعت رأسها, ولمع بريق من الأمل في عينيها. فقد ظنت أن في إمكانها استثارة عاطفة الود في قلب زوجها الأول, ومس جانب الشفقة فيه, لتفوز منه بما تريد عن طريق ألعوبة من ألاعيب النساء, وحيلة من حيلهن البارعة الماكرة.

وانحنى درفي يحيي الكونتيسة وهو يقول وقد اعتزم الانصراف:

- أنا في انتظار أوامرك يا سيدتي, لأعلم هل يجب على أن أبدأ في الإجراءات, وأن أوجه إليك

الإعلان الرسمي بالدعوى، أم أنك تريدين الحضور عندي لنشرع في وضع الأسس العادلة للصلح الذي يصون الكرامة.

ما كادت تنقضي أيام ثمانية على هاتين الزيارتين اللتين قام بهما المحامي درفي، حتى لعبت الأقدار لعبتها، فشاءت أن يحدث ما لم يكن يخطر ببال. ففي صباح أحد أيام يونيو الرائعة، تحرك من طرفي باريس المتباعدين كل من الزوجين السابقين ليتقابلا في مكتب محاميهما المشترك.

كان الكولونيل شابير كامل الهندام حسن المظهر، فقد سمحت له القروض السخية التي قدمها له محاميه أن يحصل على ما يليق به من الثياب. جاء في عربة نظيفة، وقد كسا رأسه بشعر مستعار يناسب ملامح وجهه، وارتدى سترة من الصوف الأزرق فوق قميص ناصع البياض، وتمنطق تحت صديريته بالشريط الأحمر العريض شارة فرسان جوقة الشرف، ظهرت على الكولونيل وجاهته العسكرية الأولى بعد أن عادت إليه النعمة وتخلى عنه البؤس والفقر. كان صلب العود، معتدل القامة، وقد ارتسم الهناء وما يحمله من آمال على وجهه الصارم المجلل بالأسرار، فبدا أكثر شبابا يطفح بالبشر والصحة. ما أبعد الشبه بين ما هو عليه الآن وبين شابير ذي المعطف العتيق والحذاء البالي!.. وهل يستوي الصلد العتيق الذي تداولته الأيدي ونال منه الزمن، وقطعة الجنيه الجديدة اللامعة الخارجة لتوها من دار السك؟..

إن من يرى الكولونيل، وهو على ما هو عليه الآن، ليعرف فيه بغير عناء أثرا من أجمل آثار جيشنا القديم، ورجلا من الشجعان الذين تنعكس عليهم أمجادنا الوطنية، والذين يمثلون هذه الأمجاد، كما تنعكس أشعة الشمس على شظية المرآة، فتبدو وكأن الشمس كلها قد تجمعت فيها. لكأن هؤلاء الجنود القدامى لوحات تحكي لنا الماضي، وكتب نطلع فيها إلى المجد التليد.

وما أن توقفت العربة عند باب المحامي درفي، حتى قفز منها الكونت شابير في خفة الشبان، وصعد إلى المكتب. وما كادت عربته تنصرف حتى أقبلت عربة أخرى أنيقة تزينها الشارات النحاسية اللامعة، وهبطت منها الكونتيسة فيرو في زينة بسيطة وثياب منتقاة لإبراز شبابها وحسن قوامها. وكانت تغطي رأسها بقبعة جميلة، بطنت حافتها العريضة بالحرير الوردي، وجمعت أطرافها حول وجهها، فأحاطت به، تخفي حدوده وتزيد رواءه.

وكان مكتب المحامي على ما هو عليه، كما، لم يلحقه شيء من الشباب الذي تحلى به العميلان القادمان إليه. ها هو سيمونان الخبيث يتناول إفطاره، مستندا بكتفه إلى النافذة، كما هي عادته، ينظر إلى زرقة السماء من خلال فجوة الفناء الذي تحيط به العمائر السوداء من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جوانبه الأربعة. وصاح الصبي يقول:

- أوه. هل منكم من يريد مراهنتي بسهرة في أحد الملاهي على أن الكولونيل شابير جنرال حقا وحائز على الشريط الأحمر؟

وقال جوديشال:

- ما أبرع الأستاذ!.. إنه ساحر ماهر حقيقة!..

وسأل ديكروش:

- إذن، لن ندبر له مقلبا هذه المرة.

فرد عليه بوكار:

- بل إن زوجته، كونتيسة فيرو، هي التي تدبر له المقلب الآن!..

وعاد جوديشال يقول:

- هل يفرض على الكونتيسة فيرو إذن أن تكون لزوجين معا؟

وصاح سيمونان:

ها هي قادمة!..

في هذه اللحظة دخل الكولونيل شابير وسأل عن المحامي درفي. فأسرع سيمونان يقول:

- الأستاذ موجود يا سيدي.

فنظر إليه شابير وهو يقول:

- لست أصم إذن، أيها الوغد الصغير.

وأمسك بأذن الفتى بين أصابعه يعصرها، أمام أعين الكتبة، الذين سرهم ذلك، وأخذوا يضحكون وينظرون إلى الكولونيل في دهشة وإجلال، وهم مشدوهون لشأن هذا الرجل العجيب.

كان الكونت شابير في حجرة المحامي، في الوقت الذي دفعت فيه زوجته باب المكتب.

قال أحد الكتبة هامسا لزميله:

- قل لي، يا بوكارو سيكون المشهد فريدا في حجرة الأستاذ. هذه المرأة في استطاعتها أن

تذهب إلى الكونت فيرو في الأيام الزوجية وإلى الكونت شابير في الأيام الفردية..

فعلق جوديشال قائلا:

- لن يضبط الحساب إلا في السنوات الكبيسة.

وأسرع بوكار يقول محتدا:

اسكتوا يا سادة, لئلا يسمعكم أحد. ما رأيت قط مكتبا يستهزئ فيه الكتبة بالعملاء كما هو حادث هنا!..

كان درفي قد أدخل الكولونيل في غرفة نومه, عندما دخلت عليه الكونتيسة, وقال لها:

- لا أدري, يا سيدتي, إذا كنت ترغبين في رؤية الكونت شابير, لذلك جعلت بينك وبينه فاصلا, فإذا شئت...

- هذه لفتة أشكرك عليها كثيرا, يا سيدي.

- لقد أعددت مسودة العقد وبه الشروط التي يمكن مناقشتها بينك وبين مسيو شابير, وسأذهب منك إليه ومنه إليك لأنقل لكل منكما وجهة نظر الآخر.

وبدا على الكونتيسة شيء من الضيق وهي تقول:

- ما الذي أعددته يا سيدي؟

فأخذ درفي يقرأ من ورقة بين يديه:

"بين الموقعين فيه أدناه: السيد هياسانت شابير, الحائز على لقب كونت وعلى رتبة الجنرال وعلى درجة فارس في جوقة الشرف, والمقيم في باريس بشارع بيتي بانكييه, طرف أول. والسيدة روز شابوتل, زوجة السيد الكونت شابير المذكور أعلاه, وابنة..."

قاطعته الكونتيسة قائلة:

- مر على المقدمة, اترك هذا, وأسرع بي إلى الشروط.

فقال المحامي:

- إن المقدمة, يا سيدتي, تشرح باختصار وضع كل منكما في مواجهة الآخر. بعد ذلك يأتي البند الأول وفيه تعترفين أمام ثلاثة من الشهود, هم محاميان والعلاف الذي استضاف زوجك, وقد أسررت إليهم بدقائق الدعوى وتعهدوا بالكتمان المطلق, تعترفين بأن الرجل المعين في

الأوراق المرفقة بهذا العقد, والثابتة شخصيته في الوثيقة المحررة بمعرفة ألكساندر كروتا, هو نفسه الكونت شابير زوجك الأول. وفي البند الثاني يتعهد الكونت شابير, إبقاء على سعادتك وهنائك, بألا يلجأ إلى استخدام حق من حقوقه إلا في الحالات المنصوص عليها في العقد.

وتوقف المحامي لحظة يستطلع الآثار المرتسمة على وجه الكونتيسة, ثم عاد يقول:

- .. هذه الحالات ليست سوى إخلالك بتنفيذ شروط الاتفاق السري..

وتوقف المحامي مرة أخرى, وبعد لحظة قال:

- .. وقد قبل المسيو شابير من جانبه أن يتعاون وديا معك للحصول على حكم يلغي شهادة وفاته, ويقضي بفسخ عقد زواجه منك..

وبدأ الانزعاج على وجه الكونتيسة وهي تقول:

- هذا الشرط لا يوافقني, ولا يمكن أن أرضاه بحال. فأنا لا أريد قضايا ولا أحكام. وأنت لا تجهل السبب.

ولم يلتفت المحامي إلى هذا الاعتراض, وإنما راح يتابع تلاوته في صوت هادئ كأن لم يحدث شيء.

- .. وفي البند الثالث تتعهدين بترتيب إيراد لمدى الحياة باسم الكونت هياسانت شابير, قدره أربعة وعشرون ألفا من الفرنكات, يتقاضاه الكونت بانتظام من إدارة الدين العام, ويقيد في سجلاته, على أن يعود إليك رأس المال بعد وفاة المستفيد.

قالت الكونتيسة:

- ولكن هذا كثيرا.. كثير جدا!..

- هل في استطاعتك التصالح على ما هو أدنى من ذلك؟

- ربما.

- ما الذي تريدينه, على وجه التحقيق, يا سيدتي؟

- أريد.. لا أريد قضايا. أريد..

قاطعها درفي في عنف وهو يقول:

- تريدين أن يظل ميتا لا وجود له.. أليس كذلك؟

فاشتد حنق الكونتيسة وقالت:

- يا سيدي، إذا كان لابد من إيراد هو أربعة وعشرون ألفا من الفرنكات، خير لي أن نذهب أمام القضاء..

وهنا فتح الكولونيل باب الغرفة التي كان بها، وصاح في صوت خشن مكتوم:

- نعم سنذهب أمام القضاء..

وظهر الرجل في فتحة الباب فجأة أمام زوجته، وقد وضع يدا في صديريته، ومد يده الأخرى نحو أرض الغرفة، وكأنما ذكرى مغامرته مع الموتى في جوف الأرض قد أضفت على إشارته هذه قوة هائلة كئيبة.

وذهلت الكونتيسة وقالت في نفسها:

يا إلهي!.. إنه هو!..

وعاد الكولونيل يقول:

- كثير على ما أطلبه منك!.. أنا الذي أعطيتك ما يقرب من المليون فرنك!.. ها أنت الآن تساومين على بؤسي وحاجتي!.. حسنا.. أريدك أنت الآن.. أريدك أنت وثروتك.. إن أموالك شركة بيننا، ومازال زواجنا قائما!..

صرخت الكونتيسة في دهشة مفتعلة:

- ولكن يا سيدي، هذا الرجل ليس هو الكولونيل شابير!.

فصاح العجوز في صوت اختلط فيه التهكم بالغضب:

- هل تريدين الأدلة؟ إليك الأدلة، لقد التقطتك من عرض الطريق، عرفتك في حدائق الباليه رويال.

علا الشحوب وجه الكونتيسة. وإذ رأى الكولونيل هذا الشحوب يغالب المساحيق التي كست بها وجهها، توقف فجأة عن الكلام، وأحس بأسف عميق لتلك الإهانة المؤلمة التي ينزلها بالمرأة التي كانت موضع حبه الشديد فيما مضى. ولكنه حينما نظر إليها تلقى منها نظرة مسمومة بالحقد والكراهية جعلته يعود إلى غضبته ويقول:

- لقد كنت في منزل امرأة تدعى...

CamScanner الممسوحة ضوئيا بـ

فأسرعت الكونتيسة توجه الكلام إلى المحامي قائلة:

- ارحمني يا سيدي. اسمح لي بالانصراف, فما جئت إلى هنا لأسمع مثل هذا السباب.

وقامت من مقعدها وانصرفت. فأسرع درفي خلفها يجري في أرجاء المكتب, ولكنها تبخرت وكأنها أوتيت جناحين طارت بهما. عاد المحامي إلى حجرته, فوجد الكولونيل في أشد حالات الغضب, يروح ويجيء بخطوات واسعة, وهو يقول:

- في ذلك الزمن كان الواحد منا يختار زوجته من حيث يشاء, ولكني أخطأت الاختيار, وأسأت إلى نفسي بالاعتماد على المظاهر الكاذبة. إنها لا تعرف الوفاء, ولا قلب لها.

- هل رأيت يا كولونيل؟ ألم أكن على حق حينما رجوت منك ألا تحضر إلى هنا؟ أنا الآن واثق من حقيقة شخصيتك. فحينما ظهرت من الباب بدرت الكونتيسة حركة فضحت دخيلة نفسها, ونمت عما في ضميرها. ولكنك خسرت الآن قضيتك, وأصبحت زوجتك تعرف أن من المستحيل التعرف عليك.

- سأقتلها..

- جنون. سيقبض عليك وتقطع رقبتك بالمقصلة مثل أسافل القتلة. وربما أخطأت ضربتك ولم تصبها, وهذا خطأ لا يغتفر,إذ يجب على من يريد قتل زوجته ألا يخطئ التصويب إليها في مقتل. دعني الآن أصلح ما أفسدته بنزقك وغبائك, أيها الطفل الكبير. اذهب وتنبه لنفسك, فهي قادرة على أن تدبر لك مكيدة, وأن تنصب لك فخا تقع فيه. فتدخلك إلى مستشفى المجاذيب. سأسارع بإعلان الأوراق إليها لأقيك شر المفاجأة.

*

وأطاع الكولونيل المسكين محاميه الشاب وخرج وهو يردد اعتذاراته في كلمات متلعثمة. ونزل درجات السلم متباطئا, وهو تائه في أفكاره السوداء, تؤلمه الطعنة التي تلقاها, ويحس بمرارتها وبنفوذها إلى أبعد شغاف قلبه. وعندما وصل إلى الدرجات الأخيرة سمع حفيف ثوب حريري, وظهرت أمامه زوجته في عتمة المكان.

قالت له, وهي تأخذ ذراعه في حركة شبيهة بتلك الحركات التي ألفها منها من قبل:

- تعال يا سيدي.

وكان فيما أقدمت عليه الكونتيسة وفي نبرة صوتها الذي عادت إليه حلاوته, ما يكفي لتهدئة

CamScanner

ثورة الكولونيل الذي انقاد لها وسار إلى جوارها حتى عربتها. وأسرع خادمها ينشر أمامها سلم العربة الفاخرة. فقالت لزوجها:

- هلا ركبت معي؟

وجد الكولونيل نفسه جالسا إلى جوار زوجته في العربة وكأنه مقود بسحر لا يدري حقيقته.

وسأل الحوذي:

- إلى أين تريدين الذهاب يا سيدتي؟

فقالت:

- إلى جروسلي.

وانطلقت الخيل بالعربة تخترق باريس بطولها.

وقالت الكونتيسة للكولونيل في صوت ينبئ عن حالة من حالات التوتر العميق التي لا يصادفها الإنسان إلا قليلا في الحياة, والتي تهز كياننا وتزلزل كل ما فينا:

- سيدي!..

وفي هذه اللحظات التي يرتج كل شيء فينا, قلوبنا, وأعصابنا, ومشاعرنا, ووجوهنا, ونفوسنا, وأجسامنا, وكل خلية من خلايانا. وتبدو الحياة وكأنها أفلتت منا, فرت من جوانحنا, وفارت, وانتقلت إلى الآخرين, كأنها عدوى, وانتشرت بالنظرة العجلى, وبنبرة الصوت, وبالإشارة المبهمة, فتنتقل إرادتنا إلى من نريد.. وذاب الجندي العجوز عند سماعه لهذه الكلمة "يا سيدي..!" هذه الكلمة الوحيدة كان لها في نفسه فعل رهيب.. فقد أحس فيها بخليط من مشاعر العتب والرجاء والعفو, والأمل واليأس, والسؤال والجواب.. جمعت هذه الكلمة كل شيء.. وليس في استطاعة امرأة أن تجمع في كلمة واحدة كل هذا القدر من البلاغة والتأثير, وكل هذه الطاقة من المشاعر والأحاسيس, ما لم تكن ممثلة بارعة في فنها.. أما التعبير عن الحقيقة فهو أبعد من هذا كمالا وأقل صدقا؛ لأنه لا يبرز كل شيء إلى الخارج, ويكشف عن كل ما كمن في الداخل.. وقد أحس الكولونيل بالندم العميق على ما ساوره من شكوك, وعلى ما بدر منه من طلب, وعلى ما انتابه من غضب, فأطرق بعينيه حتى لا يبدو عليه الاضطراب..

وعادت الكونتيسة بعد فترة تقول:

- سيدي.. لقد عرفتك في الحال..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فقال لها الكولونيل:

روزين.. هذه الكلمة هي البلسم الوحيد لجراح نفسي، والدواء الوحيد القادر على مسح آلامي وشجوني.

وانحدرت من عينيه دمعتان ساخنتان على يدي زوجته، وقد ضمها بقوة بين يديه ليعبر لها على الحنو الأبوي الدافق..

وعادت الكونتيسة تقول:

ـ سيدي.. كيف لم تفطن إلى ما أحسست به من جرح شديد، وأنا أبدو أمام هذا الغريب عنا، في هذا الوضع الفاسد الذي أنا فيه الآن.. وإذا كان لي أن أخجل من أمري فليكن خجلي على الأقل فيما بيننا كأسرة.. ألم يكن يجدر بنا أن يظل هذا السر دفينا في قلبي وقلبك؟ وأملي أن تغفر لي ما بدا مني من انصراف ظاهر عن المآسي التي حلت برجل كان كل ما حولي يحول بيني وبين الاعتقاد في وجوده حيا..لقد تلقيت رسالاتك.

وتوقفت برهة عندما ارتسمت علامات الاعتراض على وجه زوجها، ثم عادت تقول في تصميم:

ـ ... نعم، تلقيت رسالاتك، ولكنها وصلتني بعد انقضاء ثلاثة عشر شهرا على موقعة أيلو.. وكانت كلها مفضوضة، ممزقة، قذرة، ذات خط يتعذر تمييزه. وقد ظننت، بعد حصولي على توقيع من نابليون على عقد زواجي الجديد، أن نصابا ماهرا يحاول التغرير بي وابتزاز أموالي.. ولرغبتي في عدم إقلاق راحة الكونت فيرو، والمحافظة على روابط الأسرة التي أنشأتها اضطررت إلى اتخاذ احتياطاتي حتى لا أقع في أحابيل من يزعمون أنهم الكونت شابير كذبا.. ألم أكن على صواب في ذلك؟ قل لي بربك..!

ـ نعم.. كنت على صواب، وعلى حق.. وأنا وحدي الذي كنت غبيا ومغفلا، لأني لم أقدر خيرا مما قدرت نتائج مثل هذا الوضع الشاذ.

ثم ألقى الكولونيل نظرة من نافذة العربة، فرأى أسوار لاشابيل في أطراف باريس فسأل الكونتيسة:

ـ إلى أين نحن ذاهبان؟

ـ إلى مزرعتي، بالقرب من جروسلي، في وادي مونمورانسي. هناك سنفكر يا سيدي معا في الحل الذي يتعين علينا الأخذ به. لست أجهل ما هو مفروض علي من واجبات.. وإذا كنت

زوجتك بحكم القانون، فلست أحل لك بحكم الواقع. هل ترضى أن نصبح أنت وأنا أضحوكة باريس، وقصة تلوكها الألسن فيها.. لنخفي هذا الأمر عن الناس، إذ فيه جانب من الإذلال والتحقير لي، ولنحفظ لنا كرامتنا، ولنبقي على سمعتنا..

وسكتت الكونتيسة برهة ألقت بعدها على زوجها نظرة ملأتها حزنا ورقة ثم قالت في تودد:

- مازلت تحبني بعد، أعرف ذلك.. ولكن أنا؟ ألم يكن من حقي أن أرتبط بروابط أخرى؟ إني وأنا في هذا الموقف الشائك أشعر في قرارة نفسي بصوت يقول لي إني آمل في نبيل خلقك الذي خبرته كثيرا من قبل.. هل مما يسيئني أن أجعل منك الحكم الوحيد الذي يقرر مصيري ويقضي في أمري؟ كنت أنت الخصم وأنت الحكم معا.. إني أستسلم إلى كريم خصالك ونقاء سريرتك.. وسيغفر لي قلبك الطيب نتائج الأخطاء البريئة التي ارتكبتها بغير ذنب. أعترف لك إذن أني أحب مسيو فيرو. وقد ظننت أن من حقي، بل من واجبي، أن أحبه.. ولست أخجل من اعترافي بهذه الحقيقة أمامك.. وإذا كان فيها ما يغضبك ويثير شعورك، فليس فيها ما يمس كرامتك أو يخدش شرفك.. وهل في استطاعتي أن أخفي عنك الحقائق؟ عندما شاءت الأقدار أن تجعل مني أرملة، لم أكن أما بعد..

أشار الكولونيل بيده إلى زوجته لتكف عن الكلام، وظلا لا ينبسان ببنت شفة طوال نصف ميل.. وكان شابير يرى في خياله الطفلين الصغيرين أمام عينيه..

ثم قطع الكولونيل الصمت وقال:

- روزين..!

- سيدي؟

- هل يخطئ الموتى إذا عادوا إلى الحياة؟..

- كلا. كلا.. يا سيدي.. لا تظنني أتنكر لك أو أجفوك.. كل ما هنالك أنك تجد الآن عاشقة محبة وأما حنونا في المكان الذي تركت فيه زوجة من قبل.. وإذا كان من المستحيل علي اليوم أن أحبك كزوجة، فأنا عارفة بجميلك في كل ما أنا مدينة لك به، وقادرة على أن أقدم لك ما تقدمه الابنة من ود وإعزاز لأبيها.

عندئذ قال الرجل العجوز في صوت عذب:

- روزين.. لم يعد في قلبي سببا للحقد عليك..

وظهر التأثر على وجهه، ثم ابتسم تلك الابتسامة التي تعكس دائما ما في النفس من صفاء وما في القلب من حنان، وعاد يقول:

- سوف ننسى كل شيء ونمحو كل ما حدث. فلست من التنطع بحيث أطلب مظاهر الحب الكاذب من امرأة لم تعد تحبني..

وأرسلت الكونتيسة نحوه نظرة شحنتها بعلامات العرفان بالجميل، جعلت شابير المسكين يود لو انشقت الأرض من تحته، وعاد إلى القبر الذي دفن فيه هناك في أيلو. فمن الرجال من يرضى بمثل هذه التضحية.. ولا يجد من عزاء في الإقبال عليها إلا الإحساس بأنه قد حقق السعادة والهناء لمن يحب.

وعادت الكونتيسة تقول:

- سوف نتناول الحديث في ذلك كله، يا صديقي، فيما بعد، عندما يهدأ قلبانا وتصفو نفسانا..

وتطرق الحديث بينهما إلى وجهة أخرى، بعد أن تعذر الاستمرار فيه على هذا النسق مدة طويلة.. ولم يعد الزوجان إلى ذكر ما هما فيه من وضع عجيب إلا تلميحا. وفي غير ذلك كانت الرحلة رائعة، تذكرا في خلالها ما صادفهما من أحداث في حياتهما الزوجية السابقة، وما علق بذهنهما من وقائع الحكم الإمبراطوري القديم.. وعرفت الكونتيسة كيف تضفي على تلك الذكريات البعيدة طابع الحنان والإعزاز، وأشاعت في الحديث لمسة من الحزن والأسى كان لابد منها لتبقي للموقف جديته.. لقد أثارت كوامن الحب في قلب زوجها من غير أن توقد فيه الرغبة، وكشفت له عما تجمع في نفسها من قيم معنوية نبيلة، وراحت تحاول إغراءه على الاكتفاء من الهناء بسعادة القرب التي يقنع بها الأب البار المحب من ابنته المدللة.. لقد عرف الكولونيل من قبل في زوجته إحدى كونتيسات عهد الإمبراطورية، وها هو يرى فيها الآن إحدى كونتيسات عهد الملكية العائدة..

وأخيرا وصل الزوجان، عن طريق جانبي، إلى مرج كبير وسط الوادي الضيق الذي يفصل ما بين مرتفعات مارجانسي وقرية جروسلي الجميلة.. وكانت الكونتيسة تملك في هذه البقة بيتا رائعا وجد فيه الكولونيل، عند وصوله، جميع الاستعدادات اللازمة لإقامته ولإقامة زوجته..

لاشك أن للبؤس قدرة سحرية على إبراز كوامن التكوين الإنساني، وعلى كشف طبيعة هذا التكوين، وإظهار معدنه، فهو في بعض الرجال يزيد من خبثهم وقسوتهم، وفي البعض الآخر يضاعف من شفقتهم وحلمهم.. وهؤلاء هم ذوو القلوب الطاهرة.. ولقد جعل الشقاء من الكولونيل شابير إنسانا أكثر كرما وأوفر عطفا مما كان عليه من قبل، وأصبح بذلك أشد استعدادا

لتفهم خفايا الآلام والأحزان التي تصيب قلوب النساء, والتي يجهلها معظم الرجال. غير أن بقية من التوجس والشك المريب ظلت تساوره في شأن زوجته.. فابتدرها بهذا السؤال:

- هل كنت واثقة كل الثقة من قدرتك على إحضاري إلى هذا المكان؟ .

فردت عليه قائلة:

- نعم .. لأني وجدت فيك الكولونيل شابير الذي عرفته .. ولم أجد فيك الرجل المشاكس الذي يريد الوقوف أمام القضاء.. وكان في صوت الكونتيسة وهي تقول هذا الكلام من الصدق والثقة ما بدد في قلب الكولونيل آثار الشكوك التي نبتت فيه.. فندم على ما كان منه نحوها..

ظلت الكونتيسة طوال أيام ثلاثة تبذل لزوجها الأول من العطف والرعاية ألوانا وفنونا وبدت كأنها تحاول, بعنايتها المستمرة ورقتها الفائقة, أن تمحو ذكرى الآلام التي نزلت به, وأن تستغفره عن البؤس الذي قاساه بسببها, وكانت هي, باعترافها, مصدره البريء.. وحرصت كل الحرص على أن تبدي له, في شيء من الدلال الحزين, جوانب من الحسن والرقة عرفت فيه من قبل الضعف أمامها والانقياد لها.. وفينا, نحن الرجال, شيطان يجعلنا نميل أكثر ما نميل إلى بعض أساليب الحديث, وإلى أنواع جميلة من نوازع القلب والفكر, فنقف أمامها منزوعي المقاومة عزلا من السلاح..

لقد أرادت الكونتيسة أن تثير في الرجل اهتماما بحالتها, وأن تحرك عوامل الرحمة فيه, لتستولي بعد ذلك على عقله, وتسيطر سيطرة كاملة عليه. وصممت على تحقيق هدفها هذا مهما كلفها الأمر, وإن كانت لا تدري بعد ما الذي تفعله بهذا الزوج بعد إخضاعه.. إن رغبتها الكبرى هي القضاء عليه اجتماعيا, حتى لا تقوم له قائمة أبدا..

وفي مساء اليوم الثالث أحست أنها, على الرغم من كل ما بذلت من جهود, مازالت في شك من نتيجة حيلتها. فادعت الحاجة إلى بعض الراحة, وصعدت إلى غرفتها حيث جلست أمام المنضدة وخلعت قناع الاطمئنان والهدوء الذي طالما أخفت وراءه وجهها أمام الكولونيل شابير, فكانت كالممثلة التي تعود منهكة إلى مخدعها, بعد دور شاق طويل على خشبة المسرح, فتلقي بنفسها خائرة في أحد المقاعد, وتترك في أعين المشاهدين وذهنهم صورة لم تعد تشبهها في شيء. وراحت تتم رسالة كانت قد بدأتها من قبل موجهة إلى دلبيك, وهي تكلفة فيها بأن يذهب نيابة عنها إلى مكتب المحامي درفي, وأن يطلب الإطلاع على الوثائق الخاصة بالكولونيل شابير وأن ينسخ هذه الوثائق ثم يأتي لمقابلتها فورا في جروسلي.

وما كادت الكونتيسة تتم رسالتها حتى سمعت في الدهليز وقع أقدام الكولونيل, الذي شغلته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غيبتها عنه فجاء يسعى إليها.

وما أن رأته حتى صاحت قائلة:

- وا أسفاه! بودي لو كنت الآن جثة هامدة, إن وضعي الآن أصبح لا يطاق..

فأسرع الكولونيل يسألها في لهفة وسذاجة:

- ما خطبك؟ ماذا بك؟..

قالت في خبث حواء:

- لا شيء, لا شيء..

وقامت من مقعدها, تاركة الكولونيل في الحجرة, ونزلت لتحدث خادمتها بعيدا عن سمعه. أوصت الخادمة بأن تذهب لتوها إلى باريس وأن تسلم بنفسها إلى دلبيك الرسالة التي كتبتها, ثم تعيدها إليها بعد أن يقرأها وكيل زوجها. بعد ذلك اختارت من بين مقاعد الحديقة مقعدا ظاهرا جلست فيه بحيث يسهل على الكولونيل أن يراها وأن يأتي إليها متى شاء, وكان الرجل في تلك الأثناء يبحث عن زوجته, وإذا رآها أسرع إليها, وجلس إلى جوارها, وراح يسألها في قلق؟

- روزين, ماذا حدث لك؟

فلم تجبه ولاذت بالصمت..

وكان الوقت مساء رائعا. أمسية من تلك الأمسيات الهادئة التي تنشر في شهر يونيو عبيقا خافتا وسحرا نافذا عندما تحل ساعات الغروب. كان النسيم رائعا والصمت مخيما, بحيث تسمع على البعد, في بعض أرجاء المرج, أصوات أطفال تجري وتلهو, فتزيد نغمات حلوة على المنظر الرائع الذي رسمته الطبيعة..

- ألا تردين علي, يا روزين؟

قالت الكونتيسة:

- إن زوجي...

وتوقفت عن الكلام, ثم بدرت من يدها إشارة, وقالت وقد علت الحمرة وجهها من الخجل والاستحياء:

كيف أعبر وأنا أتحدث عن الكونت فيرو؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فرد عليها الكولونيل، في صوت ملؤه العطف والحنان:

- بل سمه زوجك، يا فتاتي المسكينة!.. أليس هو والد أطفالك؟

قالت:

- إذن، ماذا أقول له إذا سألني عما جئت أفعله هنا؟ كيف يكون موقفي إذا علم أني عشت تحت سقف واحد مع رجل غريب؟

ثم اتخذت الكونتيسة مظهرا جادا وهي تقول:

- اسمع يا سيدي، قرر بنفسك مصيري، واختر لي ما تشاء، إني أسلمت أمري لك، وسأنفذ ما تقضي به...

أمسك الكولونيل بيدي زوجته وقال:

- يا عزيزتي، لقد عزمت على أن أضحي بنفسي تماما في سبيل سعادتك..

فصرخت وقد أفلتت منها حركة عصبية:

- هذا مستحيل. فكر في أنه يجب عليك عندئذ أن تنزل عن شخصيتك إلى الأبد وبطريقة رسمية..

قال الكولونيل:

- كيف؟ ألا تكفيك كلمة الشرف مني؟

لقد سقطت كلمة "رسمية" هذه على قلب الرجل العجوز سقوطا سيئا، فأحيت فيه شكوكا لم يكن يريد لها أن تثار من جديد. وألقى على زوجته نظرة أشاعت الحمرة في وجهها، فخفضت عينيها. وخشي هو أن يحدث ما يحمله على ازدرائها، وخشيت هي أن تكون قد خدشت حساسيته المرهفة وضميره الحي، وهو الرجل الذي تعرف الكثير عن خلقه الطيب وخصاله الكريمة. وغامت السحب قليلا على وجهيهما ولكن سرعان ما عاد البشر إليهما، وانفرجت أساريرهما، حينما جاء إليهما من البعد أصوات الأطفال.

ونادت الكونتيسة تقول:

- يا جول. دع أختك، لا تعاكسها.

فسألها الكولونيل:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كيف؟ هل أولادك هنا؟

- نعم. ولكنني نبهت عليهم ألا يقلقوا راحتك, أو يزعجوك.

وقدر الرجل العجوز هذه اللفتة الرقيقة من جانب زوجته, وتناول يدها ورفعها إلى شفتيه يلثمها في حنان, وقال لها:

- ليأتوا إلى هنا.

وأقبلت الفتاة الصغيرة تجري لتشكو أخاها.

- ماما!

- ماما!...

- هو الذي ...

- هي التي..

وامتدت الأيدي الصغيرة نحو الأم, واختلطت أصوات الطفلين في ضجيج, فكان منظرا مفاجئا جميلا.

صاحت الكونتيسة وهي ترسل الدموع من عينيها:

- مساكين هؤلاء الأطفال!.. يجب علي أن أترك ابني وابنتي هذين. لمن سوف يعهد بهما الحكم يا ترى؟ هل من سبيل إلى شطر قلب المرأة وتقسيمه إلى جزأين؟ كلا. أنا أريدهما لي, لي وحدي..

قال الصغير جول وهو يوجه إلى الكولونيل نظرة غاضبة؟

- هل أنت الذي أبكيت أمي؟

فصرخت فيه الأم في حزم وأمر:

اسكت يا جول.

ظل الطفلان واقفين لا ينبسان بكلمة, وهما ينظران إلى أمهما تارة وإلى الرجل الغريب تارة أخرى في دهشة يعجز اللسان عن وصفها.

وعادت الكونتيسة تقول:

- نعم. إذا أرادوا التفريق بيني وبين الكونت, فليتركوا لي الأطفال. وسأرضى بعدها بكل شيء, وأخضع لكل أمر..

وقال الكولونيل, وكأنه يتم كلاما بدأه في سريرته:

- نعم. يجب علي أن أعود إلى الاختفاء.. في جوف الأرض ثانية. لقد حدثت نفسي بهذا من قبل, وعزمت عليه.

ردت عليه الكونتيسة قائلة:

- وهل في استطاعتي أن أقبل تضحية كهذه؟ هناك رجال بذلوا حياتهم من أجل عشيقاتهم, ولكنهم لم يموتوا إلا مرة واحدة. أما أنت, فسوف تجود بحياتك كل يوم مرة. لا. لا هذا مستحيل. ولو تعلق الأمر بوجودك, لهانت التضحية. ولكن أن تقر وتوقع بإمضائك أنك لست الكولونيل شابير, أن تعترف بأنك كاذب مدع, أن تعرض شرفك للمهانة, لن تستمر في الكذب والادعاء كل ساعة من ساعات النهار, إن الإخلاص والتفاني لدى الإنسان لا يصلان إلى هذا الحد من نكران الذات. كلا. والله لولا طفلي البريئين لفررت معك, ولتبعتك إلى أقصى حدود العالم..

صمت شابير برهة عاد بعدها يقول:

- ألا يمكنني البقاء هنا, والعيش في هذا البيت المتطرف الصغير كواحد من أقاربك؟ إن حاجاتي محدودة, وطلباتي قليلة, وكل ما يلزمني هو قليل من الطباق وجريدة الدستور كل صباح.

انفجرت الكونتيسة تبكي, ونشبت بينها وبين الكولونيل شابير مبارزة سلاحها التسامح والكرم, خرج منها الجندي منتصرا. لقد شاهد الكولونيل في ذلك المساء تلك الأم وهي تنتحب بين طفليها, وخلب لبه ما في هذا المشهد المؤثر من انفعالات, وسط هذه الطبيعة السخية بالعطاء والخير, وفي عتمة الليل والصمت المخيم. أسرة يهددها التفكك والشقاء وفي كلمة منه سعادتها ولم شملها. فعزم على أن يقبل لنفسه الموت وقرر أن يرضى بالزوال. لم تعد الإجراءات الرسمية تخيفه, ولم تعد كلمة الاختفاء تثير حفيظته. فسأل عن الطريقة التي يتبعها ليحقق لهذه الأسرة السعادة والهناء.

فردت عليه الكونتيسة:

- افعل ما يحلو لك. أؤكد لك أني لن أتدخل في شيء له صلة بهذا الموضوع. ليس من حقي ولا من واجبي هذا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حضر دلبيك بعد أيام، وعملا بتعليمات الكونتيسة وتوجيهاتها، تمكن بغير كثير عناء من اكتساب ثقة الكولونيل العجوز، وترتيب الأمر على ما يرام. وفي اليوم التالي توجه الوكيل ومعه الكولونيل شابير إلى بلدة سان لوتا فرني حيث كان الإقرار معدا للتوقيع عليه عند الموثق. وما أن سمع الكولونيل عبارات الإقرار تتلى عليه، في صراحتها المثيرة وكلماتها الفجة، حتى انطلق فجأة خارج المكتب وهو يصيح.

- يا للشياطين!. هل أنا مغفل إلى هذا الحد لأوقع على مثل هذا الكلام؟. إنني أكون مزورا كاذبا إذا سلمت بذلك!

أسرع دلبيك يقول له:

- لست أنصح إليك، يا سيدي، بأن توقع على هذه الورقة بغير ترو أو باستعجال.. ولو كنت أنا مكانك الآن لعرفت كيف أحصل من هذا الإمضاء على دخل ثابت لا يقل عن ثلاثين ألف جنيه. إن الكونتيسة على استعداد لدفع هذا المبلغ.

ألقى الكولونيل نظرة كالصاعقة على الوغد الذي حدثه هذا الحديث، نظرة الرجل الشريف الذي مست كرامته فثار لها. وانطلق في سبيله لا يلوي على شيء، تتنازعه آلاف العواطف المتعارضة. وعاوده الشك القديم وامتلأ قلبه من جديد توجسا. ثم تتابعت في نفسه عوامل الغضب وأمارات الهدوء. وانتابته الهواجس.. وبعد أن سار مسافة طويلة وصل أخيرا إلى مرج جروسلي، فدخل إليه من فجوة في السور، وبخطوات وئيدة، ذهب ليستريح ويفكر في أمره داخل حجرة صغيرة في أسفل الكشك الخشبي، الذي يطل على طريق سان لو. وكانت ممرات المرج مكسوة بذلك الرمل الأصفر الناعم الذي يحل أحيانا محل الزلط عند عدم توفره. وكانت الكونتيسة في الكشك الذي يعلو الغرفة، ولكنها لم تسمع وقع أقدام الكولونيل على الرمل. وهل في استطاعتها أن تصغي إلى ما يحدث حولها، وهي مستغرقة في التفكير فيما يشغل بالها من نجاح المهمة التي كلفت بها وكيل أعمال زوجها. أما الكولونيل العجوز فهو الآخر لم يشعر بوجود زوجته في الكشك الصغير فوق رأسه.

وبعد برهة ظهر دلبيك على الطريق، ورأته الكونتيسة وهو يسير وحده إلى جوار السور الأخضر. فراحت تناديه من حيث تجلس في الكشك:

- ما وراءك، يا مسيو دلبيك، هل وقع على الإقرار؟

- كلا يا سيدتي.. بل إنني لا أدري أين ذهب الرجل، ولا ما الذي حدث له. لقد حزن الجواد العجوز وأفلت مني زمامه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فردت عليه الكونتيسة قائلة:

- يلزمنا إذن أن ننتهي بوضعه في مستشفى المجانين، مادام بين أيدينا وفي قبضتنا الآن.

فجأة استعاد الكولونيل قوة الشباب ونشاط الصبا، فقفز سور النباتات الذي يسير الوكيل إلى جواره، وفي لمحة عين كان واقفا أمامه. رفع الكولونيل يده وهوى بها مرتين على صدغ دلبيك فطبع بذلك أعنف صفعتين قدر لأحد الوكلاء أن يتلقاهما على وجهه.. وقال له:

- بل قل يا وغد أن عجائز الجياد تعرف كيف ترفس وتكيل الضربات لمن يستحقها.

بعد أن هدأت ثورة غضبه، عجز الكولونيل عن القفز فوق الهوة التي انخفضت أمامه. لقد تجردت الحقيقة أمام عينيه وظهرت في جلاء. لقد كشفت له العبارة التي سقطت من شفتي الكونتيسة، كما كشف له رد دلبيك عليها، أبعاد المؤامرة التي كانت تحاك من حوله، والتي أوشك أن يسقط فيها. وما الرعاية التي أحيط بها، والحنان الذي بذل له، إلا الطعم الذي نصب له لاجتذابه داخل الفخ. هذه الكلمات التي وصلت إلى أذنه كانت قطرات من السم الزعاف أعادت إلى الجندي العجوز الإحساس المرير بآلام الجسم والروح معا.

وعاد يسير في اتجاه الكشك عن طريق باب المرج في خطوات بطيئة كالجندي الجريح المتهالك. ها هو الطريق قد تحقق من أن الهدوء والسلام أمران لن يذوق لهما طعما أبدا، وأن هذه اللحظة قد فرضت عليه بدء المعركة الرهيبة بينه وبين تلك المرأة، المعركة التي طالما حدثه عنها المحامي درفي. ستصبح حياته سلسلة لا تنتهي من القضايا والمنازعات، سيعيش على الحقد والحذر، سيتجرع في كل صباح كأسا مترعة بالمرارة والكراهية. ثم عاودته فكرة رهيبة، أين له بالمال اللازم لدفع نفقات هذه الدعاوى، أو الأولى منها على الأقل؟ واسودت الدنيا في عينيه، وانتابه من الحياة يأس يكفي لحمله على الإلقاء بنفسه في الماء، لو كان بالقرب منه ماء، أو لإطلاق الرصاص على رأسه، لو كان لديه الرصاص والسلاح. ولم يلبث أن عاودته الحيرة وتغلب الشك في تفكيره، وتذكر الكلمات التي قالها له المحامي درفي في بيت العلاف، والتي غيرت من روحه وبدلت من تفكيره وحملته على الاستسلام.

وصل الكولونيل إلى الكشك، وصعد إلى الغرفة العلوية التي تطل نوافذها الزجاجية من كل جانب على المناظر الرائعة المنتشرة في أنحاء الوادي الصغير. كانت الكونتيسة جالسة على أحد المقاعد، تنظر إلى الطبيعة من حولها، وقد تمالكت أعصابها، واحتفظت بهدوئها، واتخذ وجهها تلك السحنة الغامضة التي تعرف الطريق إليها النساء المصممات على عظائم الأمور.

مسحت الكونتيسة عينيها، وكأنها كانت تسكب الدموع، وراحت تقلب في حركة غير واعية الشريط الوردي الطويل المتدلي من حزام ثوبها.. ولم تستطع، على الرغم من تظاهرها بالثبات والهدوء، من أن تحول بينها وبين الرجفة الهائلة التي اعترت جسمها، وهي ترى أمامها الرجل العجوز، الذي أحسن إليها وعطف عليها، واقفا وقد ضم ذراعيه على صدره، وشحب وجهه، وبدا الغضب على جبينه.

قال لها الكولونيل:

- سيدتي..

وتوقف عن الكلام، وأخذ يسدد إليها لبرهة نظرة قاسية أحست تحت وطأتها بحمرة الخجل تعلو وجهها. ثم عاد يقول:

- سيدتي.. لست ألعنك، وإنما أنا احتقرك. هأنذا الآن أحمد القدر أن فرق بيننا وأبعدني عنك. لم تعد لدي عاطفة نحوك، حتى ولا الرغبة في الانتقام منك. مات حبك في قلبي. كلا لم أعد أحبك. ولا أريد منك شيئا. عيشي هادئة مطمئنة، وثقي في كلمة الشرف مني، فهي خير ألف مرة من الأوراق الصفراء التي يحررها جميع موثقي باريس بأسرها. لن أطالب أبدا بذلك الاسم الذي قدر لي في يوم من الأيام أن أحيطه بهالة المجد والخلود. لست بعد اليوم إلا صعلوكا بائسا يدعى هياسانت، لا يطلب لنفسه غير مكان له تحت الشمس.. وداعا..

ارتمت الكونتيسة عند قدمي الكولونيل تحاول منعه من الرحيل، والإمساك بيديه، ولكنه دفعها بعيدا عنه باشمئزاز وهو يقول:

- ابعدي عني .. لا تمسيني!

أشارت الكونتيسة بيدها إشارة يعجز القلم عن ترجمتها، وهي تنصت إلى وقع خطوات زوجها وهو يهبط سلالم الكشك. ثم راحت تفكر، بذلك الوعي العمق الذي تخلقه الجريمة في ضمير المجرم، وتودعه الأنانية الجشعة في قلب الإنسان الشرير، وقالت لنفسها إن في استطاعتها الآن أن تحيا هانئة سعيدة، اعتمادا على الوعد الذي صدر من هذا الجندي الشهم، وعلى الازدراء الذي ظهر منه نحوها.

واختفى شابير من الوجود. فقد أفلس العلاف وتحول إلى حوذي يقود العربات. ولعل الكولونيل شاركه هذه المهنة لفترة ما في أول الأمر. بل لعله راح، كالحجر الذي يلقى به في الهاوية، يتدحرج من حفرة إلى حفرة حتى استقر به المقام وسط الأوحال والخرق التي تعج بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شوارع باريس.

*

انقضت على هذه الأحداث ستة أشهر كاملة, لم يسمع المحامي درفي خلالها لا عن الكولونيل شابير ولا عن الكونتيسة فيرو. وظن المحامي أن صلحا ما قد تم بين الطرفين, وأن الكونتيسة, بدافع الانتقام منه, قد طلبت إلى محام آخر غيره تحرير هذا الصلح. وفي صبيحة أحد الأيام أخذ درفي يجمع المبالغ التي قدمها قروضا متتابعة لهذا الكولونيل, وأضاف إلى المجموع قيمة النفقات التي أنفقها, وكتب إلى الكونتيسة فيرو يطالبها بأن تتوسط له لدى الكونت شابير في سداد المبلغ المستحق له. وأشار في رسالته إلى أن الكونتيسة تعرف بلا شك العنوان الذي يقيم فيه زوجها الأول.

وفي اليوم التالي تلقى المحامي من دلبيك, وكيل أعمال الكونت فيرو, وقد عين حديثا رئيسا لأحد المحاكم الابتدائية في مدينة هامة من مدن الريف, الرسالة المحزنة الآتية:

"سيدي.. كلفتني الكونتيسة فيرو بأن أبلغكم أن عميلكم الذي تشيرون إليه قد خدعكم وغرر بكم واستغل ثقتكم به, وأن الرجل الذي زعم من قبل أنه الكولونيل شابير اعترف وأقر بأن دعواه فاسدة, وأنه أسند لنفسه صفة ليست له. وتفضل يا سيدي بقبول تحياتي"..

"دلبيك"

صاح درفي عندما قرأ هذه الرسالة:

- والله, ما أكثر ما يصادف المرء من أفاقين أدعياء, ولكن قليلا منهم له مثل هذا الذكاء. إنهم قادرون على التغرير بالملائكة أنفسهم. هأنذا قد تذرعت بالإنسانية, وتحليت بالكرم والجود, وكنت محبا للخير, فكيف كان جزائي؟ لقد خسرت في سبيل ذلك ما يقرب من الألفي فرنك, وكنت ساذجا حقا.

انقضت فترة من الزمن على وصول هذه الرسالة إلى المحامي درفي, الذي استعوض الله في ماله الضائع. وفي أحد الأيام كان يبحث في ردهات المحكمة عن أحد المحامين من زملائه ليحدثه في أمر من الأمور. علم أن الزميل الذي يبحث عنه يترافع في إحدى الجنح أمام الدائرة السادسة. فتوجه إليها. وأراد القدر أن يصل إلى سمع درفي, وهو يدخل إلى قاعة الجلسة, ويقترب من منصة القضاة, صوت القاضي وهو ينطق بالحكم بالحبس لمدة شهرين على من يدعى هياسانت المتهم بالتشرد.. واشتمل الحكم على إحالة المحكوم عليه بعد قضاء العقوبة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى إصلاحية المتسولين ليبقى بها إلى أن يأمر النائب العام بالإفراج عنه. ومعروف في القضاء الجنائي أن حكما كهذا يعني السجن بغير حد زمني.

وعندما سمع المحامي اسم هياسانت, نظر إلى المتهم الجالس بين شرطيين على مقعد المتهمين, وعرف فيه الشخص الذي ادعى أمامه أنه الكولونيل شابير.

كان الرجل العجوز هادئا صامتا لا حراك به, وكأنه لا يفقه شيئا مما يدور حوله. وعلى الرغم من أسماله, ومن الشقاء البادي على وجهه, كانت علامات الكبرياء والنبل تقرأ في ملامحه. وكانت نظرته تنم عن الشجاعة والاستسلام معا, وتنبئ عن انفعالات ما كان يجدر برجل القضاء أن يغفل عنها أو يتجاهلها. ولكن هكذا يفعل القدر. فمتى وقع الرجل منا بين يدي العدالة, انمحت شخصيته, وأصبح مجرد كائن معنوي, لا خطر له إلا بقدر ما تنطبق عليه وجهة نظر القانون, وبقدر ما يتحصل من الوقائع المنسوبة إليه. وهو كذلك في نظر الإحصائي, حيث ينقلب إلى رقم من الأرقام المبهمة.

وعندما نقل المحكوم عليه إلى قلم الكتاب ليشحن منه إلى السجن, وسط قطيع المتشردين الذين حوكموا في تلك الجلسة, استغل درفي ما للمحامين من حق في الدخول إلى حيث يشاءون من أنحاء المحكمة, وصاحبه وهو ينظر إليه طويلا ويتطلع إلى الخليط البشري العجيب الذي يحف به ويسير معه. كانت الحجرة التي تجمع فيها هؤلاء البؤساء إلى جوار قلم الكتاب, من المناظر العجيبة التي لم يعن بدراستها أحد من المشرعين أو المصلحين أو الرسامين أو الكتاب. وهو أمر يثر الأسف ويدعو إلى الحزن. كانت هذه الغرفة, ككل الأماكن التي تدبر فيها المنازعات وتحاك فيها حبائل المشاكسة, مظلمة عفنة, تحيط بحوائطها مقاعد خشبية طويلة اكتست سوادا من طول ما جلس عليها هؤلاء البؤساء, الذين يأتون إلى هذا اللقاء الكئيب, مدفوعين إليه بالشقاء والفقر, فلا يتخلف عنه منهم أحد. قد يقول الشاعر في وصف هذه الغرفة أن ضوء النهار يستحي من الوصول إلى هذه البؤرة الكريهة التي تمر بها أحزان البشر. فما من بقعة فيها إلا ومستها الجريمة في شتى صورها, وما من مكان فيها إلا ومر به رجل, عصره اليأس بعد العقوبة الأولى, حينما لم تلتمس العدالة لزلته عذرا, فانساق في طريق الإجرام الطويل الذي انتهى به إما إلى المقصلة وإما إلى الانتحار. إن كل الذين شاء لهم سوء الطالع أن تزل بهم القدم في أنحاء باريس, يؤتى بهم ليجلسوا إلى جوار هذه الحوائط الصفراء الكالحة. وقد يستطيع كل مصلح نزيه أن يقرأ في صفحات هذه الجدران أسباب حالات الانتحار العديدة التي يشكو منها كتاب لا ضمير لهم, من غير أن يخطوا خطوة واحدة للحيلولة دون وقوعها. ما أكثر المآسي وأشد المظالم التي تشهدها هذه الغرفة المظلمة!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلس الكولونيل شابير وسط هؤلاء الرجال ذوي الوجوه الصارمة, والملابس الرثة المهلهلة, الذين ناءوا تحت أثقال البؤس والشقاء. وكان الجميع صامتين أو يتحدثون فيما بينهم همسا, تحت أنظار ثلاثة من رجال الشرطة يرقبونهم, وهم يخطرون جيئة وذهابا, وقد تدلت سيوفهم الطويلة تجرجر في صرير على الأرض.

وقف درفي في مواجهة الرجل العجوز وقال له:

- هل تعرفني؟

فانتصب الرجل واقفا وهو يقول:

- نعم يا سيدي, أعرفك.

وعاد المحامي يقول:

- إذا كنت رجلا شريفا, فما الذي دعاك لأن تظل مدينا لي؟

واحمر وجه العجوز خجلا, كما يحمر وجه الفتاة عندما تتهمها أمها بغرام تخفيه. ثم صرخ قائلا:

- كيف هذا؟ ألم تدفع لك مدام فيرو المبلغ الذي في ذمتي؟

فرد عليه المحامي في تهكم مرير:

- تدفع لي؟.. لقد كتبت لي تقول إنك نصاب دعي..

رفع الكولونيل نحو المحامي عينيه في حركة استنكار واحتجاج وكأنه يشكو إلى الله من إهانة جديدة تنزل به, ومن حنث آخر هو ضحيته. ثم قال في صوت هادئ مكتوم:

- سيدي, احصل لي من رجال الشرطة على إذن بدخولي إلى الغرفة المجاورة, وسأعطيك ورقة بموجبها تنال بغير شك حقك كاملا.

وبعد حديث قصير مع رئيس الشرطة, دخل المحامي مع هياسانت إلى الغرفة, حيث كتب رسالة إلى الكونتيسة فيرو, ثم أعطاها لدرفي وهو يقول:

- ابعث بهذه إليها, وستدفع لك كل ما أنفقت وكل ما أقرضته لي من مال... وتأكد يا سيدي, أنني إذا كنت لم أقدم لك الشكر الواجب على كل ما أسديته لي من معروف, فجميلك هنا لا أنساه أبدا...

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأشار الكولونيل إلى مكان القلب من صدره, وبعد برهة عاد يقول:

- نعم, إنه هنا في قلبي كاملا حيا. ولكن ما الذي يستطيع البؤساء فعله؟ الحب.. لا شيء غير الحب..

قال له المحامي والورقة مازالت في يده:

- كيف؟.. ألم تشترط لنفسك على الكونتيسة دخلا ثابتا يقيك الفاقة والعوز؟

رد عليه الجندي العجوز قائلا:

- دعنا من هذا الأمر, ولا تحدثني عنه. ليس في مقدورك أن تعلم مقدار احتقاري وكرهي لهذه الحياة الخداعة, التي يتعلق بها معظم الرجال. لقد أصبت فجأة بمرض عضال, هو "قرفي من الإنسانية جمعاء, وكلما تذكرت أن نابليون ملقى هناك في سانت هيلانة, هانت الدنيا في نظري, وانصرفت عن كل شيء في الوجود. لم يعد في إمكاني أن أكون جنديا, وهذا كل ما يحزنني ويدخل الهم إلى قلبي.

وسكت برهة, ثم عاد يقول وهو يشير بيديه إشارة صبيانية مرحة:

- على كل حال, خير للمرء أن يجعل الترف والذوق في عواطفه وشعوره, من أن يحرص عليهما في ملابسه وثيابه, لم أعد, أنا, أخشى الاحتقار ولا الشماتة من أحد.

وعاد الكولونيل إلى مكانه وسط المتشردين المحكوم عليهم, وانصرف درفي وهو يتعجب لحال هذا الرجل الغريب ويتساءل هل هو مجنون أم هل هو فوق مستوى البشر.

ولما عاد المحامي إلى مكتبه, أرسل جوديشال, الذي ارتقى وأصبح يشغل وظيفة الكاتب الثاني, إلى حيث تقيم الكونتيسة فيرو, التي ما كادت تقرأ رسالة الكولونيل شابير إليها, حتى بادرت إلى دفع مطلوب درفي بأكمله.

***

*

في أواخر شهر يونيو سنة 1840, كان جوديشال, الذي أصبح محاميا واشترى المكتب الذي كان يعمل فيه من قبل كاتبا في ضاحية ريس بصحبة مخدومه السابق درفي. وعندما وصل الرجلان إلى الشارع الكبير المؤدي إلى ملجأ العجزة المسمى بيسيتر, لاحظا في ظل إحدى الأشجار الباسقة, رجلا هرما من تلال الكائنات المحطمة, التي كساها الشيب, والتي تقضي

ما بقى لها من أيام في ذلك الملجأ, إلى أن يحين أجلها. حثالة المجتمع, ونفاية الإنسانية من الشحاذين والمتشردين ومن لا عائل لهم.. وكان الرجل واحدا من ألفين أمثاله, كلهم بؤساء عاجزين, يستضيفهم الملجأ, ويقدم لهم عيش الكفاف. وكان جالسا على حجر ويبدو مركزا انتباهه كله على منديله الذي فرده في ضوء الشمس ليجففه, أو ربما ليحتفظ بلونه العكر الداكن الذي يشبه لون الطباق, وحتى لا يناله من البياض شيء, وهي عادة من عادات العجزة يجدون فيها تسلية وعملا. كان وجه الشيخ العجوز سمحا مؤثرا, فيه ما يجذب النظر ويريح العين.. وكان يرتدي ذلك الثوب الصوفي الأحمر الذي يخلعه الملجأ على نزلائه, فيميزهم به عن غيرهم من بني الإنسان.

فجأة قال جوديشال لزميله:

- انظر يا درفي إلى هذا الرجل العجوز, ألا ترى فيه شبها من أولئك الصعاليك الذين يأتون إلينا قادمين من ألمانيا؟ .. ومن عجب هذه المخلوقات تعيش وتدب في الأرض, وربما تسعد أيضا.

وتناول درفي نظارته ورفعها إلى عينيه, وبعد أن نظر إلى الرجل المسكين, انطلقت منه صرخة فيها الدهشة والتعجب وقال:

- لهذا العجوز الفاني, يا صديقي, قصة أروع من القصيدة العصماء, وأوقع مما يسميه الروائيون المأساة الدامية.. هلا قابلت مرة الكونتيسة فيرو؟

فرد عليه جوديشال قائلا:

- نعم, قابلتها مرات.. إنها امرأة ذكية حلوة الحديث رائعة, وكل عيبها شيء من التدين المغالى فيه تتظاهر به أمام الناس.

- هذا العجوز نزيل ملجأ بيسيتر, هو زوجها الشرعي, الكونت شابير, الكولونيل القديم.. لاشك أنها هي التي أودعته هذا المكان. وإذا كان المسكين يحيا اليوم حياة الملاجئ بدلا من أن يعيش منعما في أحد القصور الشامخة, فما ذلك إلا لأنه قال في يوم من الأيام للكونتيسة فيرو الجميلة أنه أخذها من عرض الطريق كما يستأجر الواحد منا عربة للركوب. وقد مست هذه الذكرى شيئا في قلبها. ومازلت أذكر حتى الآن النظرة المتنمرة التي وجهتها إليه في اللحظة التي واجهها فيها بهذه الحقيقة.

وأثارت هذه الكلمات نزعة حب الاستطلاع لدى جوديشال, فقص عليه درفي القصة .

وبعد يومين من هذه الحادثة, في صبيحة يوم الاثنين, كان الزميلان في طريق العودة إلى

باريس. وإذ مرا أمام ملجأ بيسيتر ألقى كل منهما نظرة في ذلك الاتجاه. فعرض درفي على صديقه أن يذهبا لزيارة الكولونيل شابير.

وفي منتصف الطريق عثرا عليه، جالسا على أرومة شجرة قطعت، وممسكا بيده عصا يخط بها رسوما على الرمل، وكأنه يجد في ذلك لهوا وتسلية. ونظرا إليه نظرة فاحصة فلاحظا أنه قد فرغ لتوه من تناول غذائه القليل في مكانه هذا خارج الملجأ..

تقدم منه درفي وقال له:

- صباح الخير يا كولونيل شابير.

- فرد عليه العجوز قائلا:

- لا يوجد أحد هنا اسمه شابير.. لا يوجد شابير. إن اسمي هياسانت. لم أعد إنسانا كما كنت، وإنما أنا رقم.. مجرد رقم 164 بالحجرة السابعة.

ثم نظر إلى درفي في قلق يخالطه خوف الشيوخ ورعب الأطفال، وقال:

- سترون الآن إنسانا محكوما عليه بالإعدام، مقضيا عليه بالموت..

وسكت لحظة ثم عاد يقول:

- لا. ليست له زوجة ولا ولد. إنه سعيد. سعيد جدا.

انقبض صدر جوديشال وقال:

- يا له من رجل بائس مسكين!.. هل تريد بعض النقود لتشتري طباقا؟..

وأسرع الكولونيل في سذاجة غلمان باريس، يمد لكل من الرجلين يدا متعطشة، فنفحاه قطعة من ذات العشرين فرنكا، وكان شكره لهما نظرة بلهاء، وصرخة تقول: "عاش الجنود الشجعان!.." وانتصب متخذا الوقفة العسكرية، ومتظاهرا بالتصويب إليهما، وكأن عصاته قد انقلبت بين يديه سلاحا ناريا. وراح يبتسم تارة، ويصيح تارة أخرى: "أطلقوا المدافع.. ليحيا نابليون!.." ويلوح بعصاه في الهواء راسما خطوطا وهمية متشابكة.

قال درفي:

- لعل الجراح التي أصابت قلبه قد أطاحت بعقله وأعادته إلى حالة الطفولة.

وارتفع صوت عجوز من نزلاء الملجأ من خلفهما، كان ينظر إليهما:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- حالة الطفولة!. مع هذا العنيد الواعي!. ما هذا الكلام؟ هناك أيام لا يجرؤ فيها أحد مداعبته أو مس كرامته.. إنه عجوز لئيم ماكر مملوء بالفلسفة العميقة والخيال الواسع.. أما اليوم, فله عذره, لأنه في يوم الاثنين, الذي فرض على نفسه فيه الصوم والهدوء. لقد كان هنا, يا سيدي, سنة 1820, وحدث أن مر من أمامه أحد الضباط البروسيين, اضطر إلى الترجل, بينما كانت عربته ترقى هذا المرتفع الوعر. كنت أنا وهياسانت على حافة الطريق. وكان ذلك الضابط يتحدث وهو يسير مع ضابط آخر, لعله كان روسيا أو حيوانا آخر من هذا القبيل. وإذ رأى البروسي عجوزنا هذا قال له مداعبا: "هذا جندي عتيق لابد أنه حضر موقعة روزباخ". فما كان من هياسانت إلا أن رد عليه غاضبا: "لقد كنت طفلا صغيرا في ذلك الوقت, ولكنني كبرت بعد ذلك وحضرت موقعة أبينا.." ففر البروسي هاربا من غير أن يفتح فمه بكلمة.

صاح درفي قائلا:

- ما أعجب القدر الذي صاحب حياة هذا الرجل!.. لقد خرج من ملجأ اللقطاء, وها هو يعود ليموت في ملجأ العجزة.. وفي المرحلة ما بين الملجأين عاون نابليون في فتح مصر وغزو أوربا بأسرها..

ثم صمت المحامي لحظة وعاد يقول:

- هل تعلم, يا صديقي, أن في مجتمعنا رجالا ثلاثة, هم القسيس والطبيب ورجل العدالة, يتعذر عليهم الرضا عن العالم والاطمئنان إلى ما فيه. وهم ثلاثتهم يتسربلون بالسواد, ربما كان ذلك منهم حدادا على الفضائل كلها, وحزنا على أوهام البشر جميعا. وأكثر هؤلاء شقاء هو بلا شك المحامي. ذلك أن الرجل عندما يذهب لملاقاة القسيس, إنما يقصد إليه مدفوعا بالندم والتوبة, وبالعقائد التي ترفع من قدره وتحمل على الاهتمام به, فتسعد بذلك نفس الوسيط بين العبد وخالقه, وتقر به عينه, وتصبح المهمة التي يقوم بها مدعاة للفرح والسرور. فهو يطهر من الذنوب ويمحو الخطايا, ويصلح ما فسد من شئون الناس, ويقيم فيما بينهم الوفاق والوئام. أما نحن المحامين, فلا تقع عيوننا إلا على نوازع متكررة, وميول شريرة لا تنتهي, وانسياقات منحرفة لا يصلح من أمرها شيء, إن مكاتبنا مباءات يتعذر تنظيفها ومجار لا ينضب منها الوحل. كم من الأشياء تعلمتها وخبرتها وأنا أزاول مهنتي؛ عرفت أبا مات فقيرا محروما جانعا, ملقى في أحقر مكان, بلا زاد ولا مال, ولقد لفظته ابنتاه اللتان وهبهما دخلا يزيد على الأربعين ألف جنيه, رأيت الوصايا تحرق وتدمر.. ورأيت الأمهات تأكلن أموال أبنائهن اليتامى ظلما وعدوانا, ورأيت الأزواج يسرقون ثروات زوجاتهم. صادفت نساء يقتلن أزواجهن بسلاح الحب, الذي يولدنه في قلوبهم, ليجعلن منهم المجانين أو البلهاء, ثم يعشن في هناء مع

العشيق والخليل، رأيت أخريات ينشئن أبنائهن من الزوج الأول على النزق والفساد، ليتعم أبناء الغرام بالثراء والجاه.. رأيت يا صديقي.. وما أكثر ما رأيت. ولن أستطيع أن أقص عليك كل ما مر بي في حياة العمل، وكل ما دخل مكتبي وخرج منه. فهي جرائم تقف العدالة منها موقف العجز واليأس والقصور. آه يا صديقي، إن المخازي والآثام التي يستدعيها الروائيون، ويظن القصصيون أنها من نسيج الخيال.. لهي دائما أدنى من الحقيقة وأقل من الواقع. وستصادفك أنت كل هذه الروائع، وتعرف كل هذه العجائب، في المهنة التي أتمنى لك فيها التوفيق. أما أنا فحسبي منها ما حصلت عليه من أسرار الحياة. وسأذهب إلى الريف لأعيش هناك مع زوجتي، وأستنشق هواء طاهرا، بعيدا عن تلك الموبقات.. إن باريس تثير في نفسي الاشمئزاز والنفور..

قال جوديشال:

ـ لقد رأيت من ذلك الشيء الكثير في ملفات زميلي القديم ديكروش .. إنها الحياة..

---

(1) القوزاق: يرى البعض أنها فئة عسكرية ضمن روسيا.

Telegram:@mbooks90

٢٧٠٧٢٣٩٠٦٥
CamScanner